الفصل الثالث

أحوال المسند إليه

يُقصَد بأحوال المسند إليه ما يعرض له من أمور في استعمالاته كذكره ، وحذفه ، وتعريفه ، وتنكيره ، وتقديمه ، وتأخيره إلى آخر ما يعرض له .

حذفه :

الحذف على العموم لون من الأداء البياني الأمثل يكون بضغط العبارة ، وتركيزها وامتلائها ، وشحنها ، وتصفيتها ، وغربلتها ، وتنقيتها ، وفرزها ، وتنحية الفاضل منها ، وإزالة ما بها من ترهل يقعد بها ، ولا يرتقي بجمالها . ومن ثَمَّ يشتد إحكامها ويقوي أسرها ، ويغزر فيضها ، ويتكاثر إيماضها ، وإيحاؤها ؛ إذ تكون قد تخففت مما يرهقها ، ولا يعين على حسن أدائها ، فتنطلق في طريقها مؤدية للمعاني على نحو أملأ ، وأغزر ، وأعمق ، وأكثر ، وأحسن .

والحذف يكون مطلبا غاليا للارتقاء بالتراكيب ، والارتفاع بها إلى سماء عالية حين يأتي في موضعه ومكانه ، لا يغمض به الأسلوب ، ولا يلتوي به القصد ، ولا يشقى به المعنى ، ولا يلتبس به الكلام ، يوجد في التعبير ما يدل عليه ، ويشير إليه متوافقا مع فنون القول ، منسجما مع مقتضيات الخطاب ، يجول في كل غرض ، ويصيب كل معنى ، ويحقق كل قصد ، ويجلو كل غامض ، يرتفع بدقائق المعاني يكون وراءه ما يدل عليه ، ويرجح غيابه عن الأسلوب ، وعدم حضوره فيه ، ورحم الله شيخ البلغاء الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي تبتل في محرابه عاشقا حين راعته روعته ، وأسره جماله ،

وأدهشه سحره فتقدم للتعبير عن جلاله وحسنه بقلم لا يتعذر عليه معنى ، ولا يستعصى عليه لفظ ، ولا يمتنع عنه مذهب من مذاهب القول فقال مادحا له ، مشيدا به ، حافظا له حقه في التفوق والبهاء « هو بابٌ دقيقُ المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيبُ الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى فيه ترك الذِّكْرَ أفصحَ من الذكر والصَّمْتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تَخْبُرَ ، وتدفعها حتى تنظر »[1].

وحينما نقف لنخص بالحذف حذف المسند إليه ، فإننا نقدم بين الحذف هنا إشارة طائرة إلى الحذف بصفة عامة على ما احتفلت به اللغة العربية ، وجرى به اللسان العربي عذبا رائعًا ، والحذف على نحو ما تدفق به النمير الرقراق من البيان العربي صنوف وألوان إذ تراه قائما في الجمل كما تشاهده ماثلا فى الجملتين ، والجملة ، والكلمة ، بل وبعضها ، والحذف الذي نتحدث عنه في السياق البلاغي هو حذف تزدان به التعابير ، وتزداد به ملاحة الكلام ، ويجود به الأسلوب ، ويرقى ويتفوق ، وهو لا يأتي هكذا عفوا ومن غير تقدير ، وعلى أية صورة وإنما يأتي ووراء الإتيان به من الأسرار ، والدقائق ، والملح ، والطرائف ما يجعله ضرورة لحسن الكلام في بابه ، وغرضًا مقصودًا للجودة في موضعه ، إذ يستدعيه الموقف ، وينادي عليه الغرض ، ويحض عليه المقام ، ولا يغيب عن فطنتك أن الشيء حين يذكر كاملا بكل شيء فيه ، لا يشغل الذهن بجلال التفكير ، ولا يأخذ الحس بروعة التأمل والتّروّي ، ولا ينطلق بالخيال محلقا في آفاق التعبير ؛ وحينئذ يقيّد بالكلمات المذكورة كل ظاهر وخفي ، فلا يترك النفس تكابد الشوق الملح في البحث عن الغائب من الأسلوب ، ولا يدعها تفلت من ربقة القيد التي حصرتها به مادية الكلمات

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٩٥ ، ٩٦ صحح أصله الأستاذ الإمام محمد عبده الناشر ـ مكتبة القاهرة .

المذكورة ، التي لم يتخلف في العبارة منها شيء ، ومن هنا فإنّ عدم التخلف وعدم الحذف لا يدفع إلى التأمل ، ولا يلفت النظر ، ولا يقدح زناد العقل ، ولا يستوقف انتباه السامع ، ولا يشحذ فطنة القارئ ، ولا يثير شعوره ، ولا يبعثه على التوقف ، وإثارة التساؤل ، ولا يولّد فيه الرغبة في التفكير العميق ، ولا ينشئ فيه الميل إلى سبْر عمق التعبير ، وإزاحة ما فيه من غوامض نتيجة لغياب المحذوف .

ولكن ما الحذف البلاغي الذي يغمر النفس بروعة جلاله ، ويحتفظ للبيان العربي بأكبر حظ من الإثارة ، واليقظة ، والانتباه ، والمتعة بحيث يشغل الذهن ، ويشعل الشعور ، ويتصل بالروح ويمتزج بالدم ؟

متى يحقق الحذف إرهاف الذوق ، وتنمية الحس ، وتحصيل المادة ، وتوسيع الخبرة ، وانفعال القلب ، ومعرفة مواقع الكلم ، والسمو الفني وغزارة الفيض ، وحرارة العاطفة ؟

إنه الحذف الذي يرتاح له ذوقك ، وتأنس إليه نفسك ، ويطمئن معه قلبك ، ويحصِّل من الجودة والحُسْن ما يجعله يعلو على كل نقد ، ويرتفع فوق كل إسفاف ، ويتعلق به كل حسٍّ ، ويحلق في كل سماء ، ويسطع في كل أفق . وهو في ارتياده لكل تلك الآفاق ، لابد أن تتوفر له من الأسباب ما تجعل منه في البلاغة العربية فصلا قائما بذاته يبعث بالسحر ، ويثير الدَّهَش والإعجاب . ومن ثَمَّ فإنه لابد أن يكون مجيئه في الكلام تحقيقا لمطابقة الكلام للغرض الذي كان من أجله وجاء بسببه ذلك أن المطابقة تعني أنه لا انفصال بين الأسلوب والموقف ، ولا بين الكلام والغرض ، وحينئذ يأتي التعبير قارا في مكانه ، مطمئنا في موضعه لا ينبو به الحال ؛ لأنه إنما جاء صياغة له ، وتمثيلا لكل دقائقه ، ورسما لكل أسراره ، وإحاطة شاملة وأمينة لكل شيء فيه .

على أن هذا الحذف الذي استدعاه الموقف ، وطلبه الغرض ، وحث عليه المقام لابد أن يكون في الأسلوب من قرائن اللفظ أو الحال ما يُبين عنه في

وضوح ، ويشير إليه في ظهور ، ويدل عليه في إبانة وإفصاح ، وإلاَّ حدث الإلْباس ، والإرْباك ، والخلْط ، والتشويش وفقد مَيْزَتَه في التبليغ والإفهام ، وصار إلغازًا ، وتعمية ، وإبْهاما ، وغموضا ، ومن ثَمَّ لا تكون بلاغة ولا يكون كلام .

على أن كل حذف لابد أن يكون من ورائه داعٍ يدعو إليه ، ويحضُّ عليه ويكون سببا في وجوده وإلا فلو وجد من غير وجود الداعي الذي يدعو إلى وجوده لكان أشبه ما يكون بالهذيان ، ولكان أقرب ما يكون إلى العبث وهما معا لا وجود لهما في البلاغة إذ يجب أن تنأى عنهما حتى تصح وتسلم .

قلت من قبل إن الحذف يتلوّن ويتشعّب فمن حذف الجمل ، إلى حذف الجملة إلى حذف الكلمة ، بل إلى إسقاط بعضها .

وانظر إلى قول الله تعالى في سورة الشعراء حاكيا عن شيء من قصة موسى وفرعون ، وعن قليل من الحوار الدائر بينهما ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:١٦-٢١).

وأنت حين تدير هذا القول الكريم في ذهنك فإنك ستلمح من خلال السياق أن هناك فراغا أنشأته قفزات الكلام ، وأن هذه المساحة التي تركت من غير أن تملأ إنما أعان على الوصول إليها سياق التعبير قصدًا إلى تشْغيل العَقْل ، وتنشيط الخيال ، وإثارة التطلع لدى النّفس المشتاقة دوْما إلى سبْر الأغوار ، والوصول إلى الأعماق ، والبحث عن المجهول ، والبعد عن السآمة والملل اللذين ينشآن لدى السامع والقارئ ، والنأي عن التكلّف بذكر هذه الجمل ولن يخفى عليك أن أصل الكلام بعد تقدير المحذوف فأتى موسى وهارون إلى

فرعون فقالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٦-١٨) فالمحذوف هنا أكثر من جملة .

ومما حذف فيه أكثر من جملة ما تراه ماثلا في سورة الروم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧).

إن الناس لم يستقبلوا رسل ـ الله وهم رحمة ـ على نحو ما يجب أن يكون وكانوا في استقبالهم فريقين مجرمين لا يذعنون ، ولا يطيعون ، ولا يؤمنون ، ولا يتوقفون عن إيذاء الرسل لحظة من ليل أو نهار ، والصّد عن سبيل الله والوقوف عقبة كأداء في طريق الدعوة ، ومؤمنين يستسلمون لأمر الله ، ويثقون بوعده ويشكرون رحمته ، ويصبرون على الأذى ثم تكون النتيجة السعيدة التي تتحقق ووعد الله وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

وبالتحقيق وبالنظر في الآية الكريمة نجد أن هنا جملتين قد طواهما الكلام ، وأبعدهما من سياقه ؛ لأنه لن يغمض فهْم المراد ، ولن يصعب ، إذ تساعد على فهمهما ، والوصول إليهما قرائن الكلام ، ومعونة السياق ، فيكون ذكرهما والحال هكذا تمطيطا في الأسلوب وتورّما في الكلام ، ويَسِمُه بالتكلّف ، ويصيب متلقيه بالكآبة والغثاثة ، ويحقق له النفرة والوحشة ، والملال ، ويباعد بينه وبين البلاغة والتفوق والإعجاز .

ولن يصعب عليك أن تفهم أن الأصل بعد تقدير المحذوف (فجاءوهم بالبينات فكذبوهم واستهزءوا بهم فانتقمنا منهم» .

فالانتقام إنما كان من وراء التكذيب والاستهزاء ؛ومن ثَمَّ كان الأخذ وكان الانتقام ، فالجملتان المحذوفتان مفهومتان من سياق الكلام ، وذكرهما لن يضيف شيئا إلى المعنى ، ولن يَزيدَ شيئا من مساحته لأنه مفهوم من غير

وجودهما فضلا على أن وجودهما في الأسلوب سيصيبه بالترهل ، ويفقده ميزة الخفة والرشاقة التي جاءت مرتبة على تكذيبهم .

وترى حذف الجملة يتراءى لك ظاهرا من خلال قول الله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء:٥٦) وهل يغيب عنك ما تراه في الآية هنا من إشاعة روح الهزء والسخرية من هؤلاء الضالين الذين أصيبوا بعمى القلب ، والبصيرة ، فتركوا عبادة الواحد الحق الذي يجب أن يدعى فلا يدعى غيره ، وأن يعبد فلا يعبد سواه وتركوه إلى من ؟

تركوه إلى غيره ممن يُدْعَى فلا يستجيب ، وإلى من يُطْلَب منه أن يكشف الضر وأن يحوله إلى جهة أخرى فلا يستطيع ، ولا يقدر ، وصورةُ الأمر هنا فيها من الاستخفاف ، والتبكيت ، والقهر ، والإعجاز ما لا يغيب عن فطنتك وأصل الكلام بعد تقدير المحذوف : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ، ولا يملكون تحويله عنكم).

وإنما كان الحذفُ هنا مما يَزيد الكلام ملاحة ؛ لأن الدلالة عليه في الكلام السابق عنه أوضح من أن يشار إليها ، وفي ذكر المحذوف هنا تكرار يفقد الكلام رونقه ، ويدعو إلى السأم منه ، فكان في الحذف إيجازٌ وبلاغة وانظر إلى حذف المفرد وهو من الكثرة بحيث لا يحصيه العد ، ولا يحيط به الحصر تأمل أول آية في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١).

فالآية التي تطالعها تلفت إلى توحد النوع البشري كله من خلال أصله الأول ، فالأب واحد وهو آدم ومنه كانت الأم حواء ومن ثمَّ فلا نبالة لدم ، ولا ارتقاء للون ، ولا تميز لعرق ، ومن هنا يجب أن تزال الفروق ، وأن تعدّل المقاييس ، وأن تتباعد الأثرة ، وأن تقوم الحياة بين الأحياء على الأخوة التي

يعم بها النعيم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والعبودية لله وحده ليكون الإنسان سيّد الأحرار في العالم .

إنّ الإسلامَ الذي ألّف بين القلوب بالحب ، وشفى أمراض الصدور بالتعاون ، وفاضَل بين الناس بالتقوى ، ومحا الفروق بين أجناس البشر جعل الأرض كلها وطنًا مشاعا ، والعالم كله أسرة متحدة ، ونادى الناس جميعا بأعلى صوت ثم أمرهم والوعي حاضر ، والحس متوثب ، والعقل يقظ ، والنفس خِصْبة متجدّدة بتقوى الله ـ عز وجل ـ الذي خلق الناس من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، ومنهما معًا كان البشر مجتمعين ، ثم كرّر الأمر بالتقوى لفْتًا إلى أهميّتها ، وحضًّا عليها ، ودَفْعا إلى الالتزام بها ، والسير في طريقها ثُمّ بين عِلّة الأمر المكرّر بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ إذ أراك أن عين الله ساهرة ، وأنها لا تغفل وأنها على الناس جميعا رقيب يراقب ، ويشاهد ، ويكشف ، ويسجّل ، وهو تذييل تشعر معه النفس بشدة الرهبة فتتحرر من عبودية الشهوة ، وتتخلص من سلطان القوة ، وتعمل من أجل إقرار الحق ، وتكافح في جد ودأب رغبة في إظهار الدين ، وتجاهد من أجل الله والدار الآخرة .

ولن يغيبَ عن فطنتك أن في الآية حذفا في قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أي ونساء كثيرات ، وإنما حذف الوصف هنا عند النساء لدلالة الوصف السابق المذكور للرجال عليه ؛ إذ إن في التكرار للوصف هنا مجانبة للبلاغة ، ومخاصمة للحسن ، ودعوة إلى الركاكة وامتهانا للأسلوب وبلاغة القرآن تنأى عن كل ذلك إذ هي من التفوق بحيث تعجز كل متكلم ، وتخرس كل ناطق من الأبناء الفصحاء .

واقرأ قول الله تعالى في إشارة وإشادة واضحة ما بعدها إشادة بكلمات القرآن : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٩) فالقرآن الذي يزخر بكنوز

البلاغة في جميع ألوان المعاني ، والذي بلغ الغاية التي ليس من ورائها غاية في روعة التمثيل ، وطريقة الأداء والتعبير ، والذي صوّر فبلغ أعلى القمة في دقة التصوير في كل المواقف ، وفي جميع الأغراض بأسلوب يفيض بالسحر ويترقرق بالجمال تراه هنا في رسالته التي ينهض بأدائها ، ويقوم على خير ما يكون القيام بها ، وهي رسالة تتمثل في الارتفاع بإنسانية الإنسان ، والأخذ بيده وهدايته ، إلى الطريق الذي هو أمثل ، وللملة التي هي أقوم وللحالة التي هي أرْوع وأحسن ، وهكذا تجد الصفة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ إنما تصف هذا الموصوف الغائب لكي تذهب النفس في تصوره وتقديره مذاهب بعيدة هل هو الطريق أو الطريقة ، أو الملة أو الحالة مما يشاكل ذلك ؟ مما هو متسق تمام الاتساق مع طريقة القرآن في التعبير التي تترجم عن أدق المعاني وأعمقها التي تتراءى للنفس والحس معًا في قوة ليس لها من نهاية ، وفي سحر له من الخلابة ما لا يتطاول إلى ما قدر له من كمال إلا هو .

ولن يغيب عنك أن تقدير المحذوف هنا يذهب بتلك الفخامة التي تراها مع بلاغة الحذف والتي لا تكون أبدا مع الإثبات الذي يفقدك روعة التملي ، ويحول بينك وبين الذهاب مذاهب كثيرة في تقدير هذا الغائب بعد أن ألقى بين يديك ، فمنع خيالك من التحليق ، وعقلك من التوليد والتفكير على أن هذا الغائب المحذوف يدل عليه سياق الكلام دلالة قوية فذِكْرُه ساعتئذ يضائل من قدْر التعبير ، ويطفئ ما به من توهج وإشراق .

وانظر إلى حذف «لا» في قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ (يوسف:٨٥) أي لا تفتأ ومعناها لا تزال وحذفها في الكلام كثير ، وعلى أساس هذه الكثرة جاء قولُ امرئ القيس .

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَو قطّعوا رأسي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

فهذا الداعر الذي وقف على الديار ، واستوقف غيره ، وبكى النؤى والحجارة واستبكى الصحاب ، وشبب بهند ، والرباب ، وفرتني ، وسلمى وغيرهن وهن في حياته كثيرات ، وهتف بالجبال والأودية ، وجرى حديثه رقراقا عذبا في وصف الناقة ، والفرس ، وشتى أغراض الكلام أشهدك هنا مشهدا حيًّا أخذه فيه الهوى ، وألحت عليه فيه الصبابة ، وبرح به الجوى فانطلق في غير استحياء يقسم - وليس لمثله يمين - أنه سيبقى في مكانه حيث تكون إذ كيف يتركها وهو يعاني من الشوق والوجد ما يعاني ، لذا أقسم بأنه لن يتركها ، وسيبقى قاعدا لديها حتى لو فصلوا رأسه عن جسده ، وقطعوا أوصاله تقطيعا بعد تقطيع والكلام على تقدير لا أبرح قاعدا .

أما ما تراه من الحذف في قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ فهو من البلاغة العالية التي تنفذ إلى القلب فلا يصدها عنه حجاب ؛ إذ مثّلت الكلمات هنا الموقف أبدع تمثيل وصورته على نحو يجل عن النظير ، وتلاءمت معه فأوفت على الغاية من التلاؤم والتناسب حين انتزعت الألفاظ من أودية شديدة لتناسب شدة الموقف ، ولتشاكل صعوبة الإحساس ، فهي تعبر عن أشد ما يعصف بالنفس ، ويكاد يذهب بها بددا ، فيعقوب النبي ﷺ الذي ابيضّتْ عيناه من الحزن بسبب فقده لولده ، وغيابه عنه لا ينساه ، ولا يغيب عن وعيه ووجدانه ، وإنما يذكره المرة تلو المرة بعين لا يرقأ لها دمع ، وبفؤاد غير فارغ من الحزن ، وبقلب منفطر مشقوق يبكي الابن الضائع ، وفلذة الكبد الغائب ، حتى جف العود ، وهزل الجسد ، وانطفأ التوهج ، وذهبتِ النَّضْرَة ، واستحالت كل جارحة في كيانه نفسا تعاني من الأرق الدائم ، والألم القاتل ، والحزن الطويل ، والأوجاع المبرّحة إنه يذكر ولده يوسف الذي صنع غيابُه به هذا الصنيع حتى صار على ما هو عليه وهنا يقول أبناؤه قولا يُصَوّر حاله أصدق تصوير ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ وانظر إلى

وسائل الصياغة وأدواتها في الأداء والتعبير ، فإن الفعل الناقص «فتئ» قليلُ الدوران على الألسنة إذ يستعمل في معناه الفعل «زال» فهو غير ذائع عند الكافة ، ولا مشهور لديها ، وهو أيضًا قليل الاستعمال لدى الخاصة (والحَرَضُ) ما لا يعتد به وهو أيضًا الذي أشرف على الهلاك . ومن المجاز : (فلان حرض من الأحراض) للذي لا خير عنده[1] والقسم بـ(تالله) قسم غريب ، إذ لا يكاد يعرفه إلا الخاصة ، أما العامة فلا يعرفون إلا القسم بـ (الواو والباء) على أنه قسم غير ذائع ، ولا جهير[2].

وهكذا تتلاقى كل تلك الكلمات في وفاق تام وانسجام مع الموقف فما ترى فيها من غربة ووحشة ، وما تحسّه من بعد وعدم إلف إنما هو أبلغ تعبير في نَفْض الإحساس الكامن في أطواء نفوس أبناء يعقوب ، وكأنهم يطلبون في إبهام مستتر من أبيهم أن يُهمِلَ ذِكْر يوسف ـ عليه السلام ـ حتى تحفظ عليه صحته ، وحتى لا يفنى ولا يهلك .

ولما كان في هذا من الغرابة والدهش ما فيه كان المشاكل له والملائم للونه إسقاط حرف النفي هنا ، وإسقاطه ، وعدم ذكره على خلاف ما جرى عليه الأصل وهو ما يعين على تحقيق هذا اللون من التجانس والتشابه بين الحذف على هذا النحو وبين هذا الإلحاح المضمر المتخفي الذي يشِفّ عنه قولهم لأبيهم : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ كما حكى القرآن عنهم مما يرمز ويشير إلى رغبتهم في عدم ذكر يعقوب لولده يوسف ونسيانه وأنى له ذلك وكيف ؟ وقد كان نعيما يملأ حياته ، ورضى يغمر نفسه ، وضياء يشع في وجوده ودما يتدفق في شرايينه فخلّف غيابه الثكل والحزن ، وترك فقده وحشة في النفس ، وظلمة في العين ،

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري مادة حرض صـ ٨٠ .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٧٨/٣ ، ٣٧٩ في حديثه عن مشاكلة اللفظ للمعنى .

ونارا مشتعلة في الفؤاد لا تنطفئ أبدا لذا ما يفتأ يذكره الفينة بعد الفينة ، وفي كل وقت وكل حين .

وانظر إلى إسقاط حرف النداء في قول الله تعالى حكاية عن عزيز مصر في حديثه إلى يوسف ـ عليه السلام ـ بعد الذي كان من أمر زوجته ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾(يوسف:٢٩). فسيدة القصر تعيش عيش اللهو والمرح تأكل الهنيء ، وتلبس الناعم ، وترفل في الحرير ، وتنعم بالدفء ، وتتنفس بالنعيم ، وتتزين بالجواهر حتى هبط على القصر طفل وضّاح الغرر ، متألق القسَمَات ، قدّمه زوجها إليها وبين يدي تقديمه لها عبارة كاشفة ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (يوسف:٢١) فإذا بالطفل يزيِّن القصر ، ويُشيع البهجة في أفنائه ، ويبعث الحياة في شرفاته وحجراته ، ويشرق فيه إشراقة البدر ، ويولّد فيه معاني البقاء والاستمرار والخلود ، وتدور الأيام وتمضي ويصير الطفل غلاما ثم فتى يملأ العين نموا وسموا ، والقلب إجلالا وفتنة وإكبارا .

وتبصر امرأة العزيز هذا الشباب الغضّ ويتفرّق بصرُها المبهور بين حسنه الفاتن ، وجماله الصاعق ، وروحه الجذاب ، وذكائه اللمّاح ، ورُوَائِه البديع ، وقوته المتفجرة ، فتثور في داخلها رغبة جارفة عنيفة ، ولعلها حاولت أن تسكت في نفسها هذه الرغبة الملحّة ولكن قوتها تغلب فيها هذه المحاولة فتعاني من الشوق واللوعة ما تعاني ولا تستطيع أن تكظم رغبتها فتسكب بين يدي الفتى كل غرامها ، وولهها ، وتبثه ما تجده من حرقة اللوعة ، ومن تبريح الهوى ، ولا تخفى عنه فجور نفسها ، ولا قحة هواها ؛ إذ لم يعد لها قوة على صبر ، ولا طاقة على احتمال وكتمان ، وهتفت بيوسف ـ عليه السلام ـ بعد أن أعدت نفسها ، وهيأتها لذلك فأحكمت النظرة التي تنفذ ، واللفتة التي تعجب ، والبسمة التي تنطق ، والإيماءة التي تغري ونادته قائلة ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ فرد عليها وهو في مثل هدوء الجبل ، وقوة المحيط ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ

﴿ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ولكنها لم تتركه يفلت ، ولما لم تجد منه استجابة جرت وراءه لتشدَّه إليها ، وجرى هو هَرَبًا منها ، واستبقا الباب فإذا بزوجها عنده ويقوم حوار بين الجميع يتيقّن العزيز من خلاله العماية التي وقعت فيها زوجه ، وبراءة يوسف ـ عليه السلام ـ مما اتهمته به فإذا به يخافت بصوته ، ويهمس في أذن يوسف بقوله : ﴿ يُوسُفُ ﴾ هكذا من غير أداة للنداء ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ ثم يتوجه بالقول إلى زوجته ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴾

ولن يغيب عنك ما تراه من حذف أداة النداء هنا في قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ إذ يطلب إليه أن يحتفظ بهذا السّر ، وأن يكتم هذا الأمر ، وألا يخوض فيه مع أحد ، فإنه أمر يمسُّ الشرف وينال من السمعة ، ويتصل بالعرض ، والعزيز كان يعلم مروءة يوسف ـ عليه السلام ـ ولا تغيب عنه أمانته ، وهو على يقين أن مثله لا يخون لذا أسرَّ إليه بهذا الحديث حتى لا ينكشف السِّتر ، ولا يتعرض سيد البلاد لِلَوْك الألسنة ، ولا يصير بيْتُه حديثا للسَّمَر على الموائد ، وكأن فيه إيماءً خافتا بأن هذا السر يجب أن يبقى مطويًا في لفائف القلب ، غائبا بين أطواء النفس ، محفوظًا في أعماق الضمير ، مدفونا فيه .

هذا وقد يكون المحذوف بعض كلمة وقد درسه علماء اللغة ، وبسطوا القول فيه وليس هناك ما يمنع من أن نشير إلى شيء من شواهده مع علمنا بما يقوله صاحب الطراز[1] من أنه وارد على جهة السماع يحفظ ولا يقاس عليه مثل قولهم : (عم صباحا) في (أنعم صباحا) وقوله : (لم يك حاصلا لك درهم) قال الله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ (غافر:٨٥) لأن الجازم إنما يحذف الواو كما يحذف من قولنا (لم يقل) لالتقاء الساكنين .

---

(١) انظر الطراز لحيى بن حمزة العلوي ١١٢/٢ .

وفي نحو : (لم أُبَلِ) فإن الأصل فيه لم أبالي حذفت الياء للجازم كما تحذف من قولنا (لم أمار) في أماري ثم حذفت الألف على غير قياس على جهة التخفيف ومثل ذلك قول الشاعر :

كَأَنَّ إبريقَهُم ظَبْيٌ على شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا الكِتَّانِ مَلْثُومُ

أراد بسبائب الكتان فحذف إيجازا .

ومما جاء الحذف فيه لبعض الكلمة ما تراه في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ (الزخرف:٧٧) في قراءة من قرأ : «يا مال» بحذف الكاف ولئن كان هذا الحذف مذهبا مألوفا في الترخيم ، وقديما قال ابن مالك :

تَرخيمًا احْذِف آخِرَ المنادى كَيَا سُعَا في مَنْ دَعَا سُعَادا

إلا أنك ترى هنا سرًّا للحذف ، فالهمُّ الذي هُمْ فيه قد أضعف قواهم ، وأذل نفوسهم ، وصغَّر كلامهم ـ كما قال أبو الفتح ـ وأعجزهم عن إتمام النطق بالكلمة فهم بضَعْفهم ، وعظم ما هم فيه يقتطعون بعض الاسم على نحو ما قال صاحب الكشاف .

فالحذف إذًا لداع فهم لضيق صدورهم ، وتمكن هذا الضيق من قلوبهم ومعاناتهم لأهوال الموقف وغلبة اليأس عليهم ، قد خارت قواهم ، وانشغلوا بهذا كله عن إتمام الكلمة ، وعن الإتيان بجميع حروفها .

وأراني بعد أن تكلمت هذه الكلمة عن الحذف عموما ، وعن بلاغته في أداء المعاني ، وعن ترجمته لأعمق ما يتردد في مسارب النفس ، وعن تعبيره لأرق ما يترقرق به الحسّ أخص الحذف في المسند إليه بحديث يوفي إن شاء الله على الغاية من تصويره ، ويكشف عن حسن هذا اللون من ألوان الأداء البياني الرائع بما ترتضيه أذواقنا وطريقتي في ذلك هي تلك الطريقة التي تشاكل حسّي وذلك بالوقوف أمام التعبير ، ومحاولة التعرف من خلالها إلى ما يثور في نفس قائلها ، وما يعتلج في أعماق داخله وذلك بدراسة خصائصها ،

وأحوالها ، ومحاولة فهمها من خلال سياقها وأسأل الله أن يجنبني العثرة في القول ، وأن يقيني من الخطل في الفكر ، وأن يحول بيني وبين سوء الفهم .

وإليك ما يقوله المتنبي في شكواه ، وأنينه من تنكر الأيام له ، وتفرق الخلاّن عنه ، ووحشته التي يعانيها من علّته التي افْترست جَسده ، وأنهكتْ نفسه ، واغتالت أحلامه وآماله :

وَمَلّني الفِراشُ . وَكَانَ جَنْبي يَمَلُّ لقاءه في كُلّ عامِ
قَليلٌ عائدي ، سَقِمٌ فُؤَادي كَثيرٌ حَاسدي صَعْبٌ مَرَامي
عَليلُ الجِسْمِ ، مُمتنِعُ القيام شَديدُ السُّكْرِ مِنْ غيرِ المُدام

ولا يغيب عنك أنك ترى في هذا القول تعبيرا مؤثرا عن شدة الحرمان ، وعن مرارة الوحدة والعذاب ، وأنه يعيش من غير أمل أو رجاء فصِغار المطالب قد حيل بينه وبينها ، فكيف بأكبرها الذي يتطلع إليها ، والذي يسعى من أجلها ، ويقيمها منتصبة واقفة أمام عينيه لا تغيب عن ذهنه لحظة من ليل أو نهار ؟

لقد تبخّر كلُّ شيء وتلاشى ، وذهب وضاع ، وبقي هكذا وحيدا يتقلب في مضجعه ويئن في فراشه ، ويتلوى في مرقده كما تتلوى القطاة على جمر الغضى ، تفترسه الآلام ، وتسحقه الأمراض والأوجاع ، ويغتاله الهم والضنى ، والسهر والحزن ، حتى سئمه سريره ، وهو الذي كان يمل لقاءه مرة في العام ، وماذا يمكن لرجل كان يملأ الدنيا ضجيجا ، وثورة ، وحركة ويشغل الناس به في الغدوّ والرّواح ، وفي كل وقت وكل حين تنشب الحمى مخالبها اللّعينَة في جسده ، أقول : ماذا يمكن لرجل هذا حاله إلا أن يئن ويتوجع ؟

ماذا يمكن لرجل كان ملء سمع الزمان وبصره حين قلَّ عُوّاده ، وانقطع زوّاره ، وهجَرَه من لم يكن يهْجُره ، وجافاه من كان يلاينه ، ويتودّدُ إليه ، ويتقرب منه إلا أن يتغنّى بآلامه ، ويشكو همومه وأحزانه ؟

ماذا ينتظر من شاعر كان يتلقّف الدهرُ فرائده ، ويتسابق الناس إليه في كل مكان فلا يصيبونه قد ملأ الدنيا بيانا في جميع أسباب الحياة ، كما كان ملء كل مكان قد كثر حُساده ، وقلّ أنصاره ، وتكالبت عليه النوَب ، وتكاثرت عليه الخطوب إلا أن يجاهد ، وأن يعاني وأن يشكو ، وأن يختلج ؟ لذا ترى الشاعر الموجوع المحزون قد حذف المسند إليه في قوله :

قَليــلٌ عائــدي سَــقِمٌ فُــؤادي كَــثيرٌ حاسِــدي صَــعْبٌ مَرَامــي

وفي قوله :

عليــلُ الجِسْــم ممتنــعُ القيــام شَــدِيدُ السُّكْرِ مــن غــير المــدام

أي أنا قليل عائدي ، وأنا سقم فؤادي ، إلخ

أنا عليل الجسم .. إلخ

ولا يخفى عليك أن من وراء هذا الحذف هنا هذا الضيق والضجر بسبب الحزن الشديد الذي يزلزل كيان الرجل ، ويعصف بقواه ، والحزين الملتاع تراه ضائق الصدر بنفسه ، ضائق الصدر بمن حوله ، ضائق الصدر بالدنيا كلها ، فإذا أمسك عن الحديث ، أو إذا تكلم فاختْصر في كلامه ، وحذف الفضول من حديثه فما خالف هواتف النفس ، وما جانب دواعيها ، وما يعتمل بداخلها ، أو يتردّد في أعماقها . وإنما جاء بيانه على مقتضى ما يطلبه حاله غير مغال ولا متجاوز ، مُجَسّدا للآلام النّفسية ، التي تَهُدّ كيانه ، وتلف وجوده ، وتعتصره ، اعتصارا وتسحقه سحقا .

وأنت تقرأ قول امرئ القيس :

لِمَــنْ طَلَــلٌ أبْصَــرْتُهُ فَشَــجَانِي كَخَــطِّ زَبُــورٍ في عَســيب يَمَــانِ

ديــارٌ لهنــدٍ والرّبــاب وفَــرْتَني لَيَالينــا بــالنعفِ مــن بَــدَلاَنِ

لَيــاليَ يَــدْعُوني الهــوى فأُجِيبُــهُ وأعْــيُنُ مــن أهْــوَى إليَّ رَوانِ

فإن أمس مكروبا فيارُبَّ بُهْمَة كشفْتُ إذا ما اسودّ وجه الجبان

فترى ما بقي من آثار الديار قد أثار لوعة الشاعر ، وأحال كل جارحة في جسده نفْسا تعاني من الآلام والأوجاع ، ودفع بالأحزان إلى صدره المثقل بالهموم والأحزان ، إنه ليَتَزوّد منه بنظره فإذا به وقد راعه ما بقي من بقايا هذا الطلل الذي دَرَس ، ورقّ ، وعَفَا حتى لقد صار من شدة رقته كالخط الرقيق الباهت في سعف الجريد خفاء وانْبهامًا واضْمِحْلَالاً ، ولكن الشاعر الذي أشجاه هذا الطلل وأوجعه يعود إليه ليسترجع عنده ذكرياته العذاب ، وأيامه الخوالي ، ويستذكر فيها عصارة قلبه ، واضطرام حناياه ، وتاريخ عمره ، ومنية نفسه وهو يلهو مع خليلاته وصاحباته اللواتي كن مهجة فؤاده . هند ، والرباب ، وفرْتني في مرح لا يلحقه ضَجَر ، وفي صحو لا يشوبه غيم ، وهناءة لا يردعُها سأم أو ملل ، أيام أن كان يدعوه الهوى لقضاء الليالي معهن في هذا المكان الساحر فلا يستطيع أن يعصي له أمرا ، أو يخالف له رغبة وهن يظللن يد من النظر إليه في سكون فيدفعن بالدماء حارة في عروقه ، ويشعر لهن بأشواق لا تعدلها أشواق ويجد لهن حنينا في قلبه لا يشبهه حنين ، مع فيض من النشوة ، يروي وجوده الخالي وفؤاده الصّادِي .

وأنت ترى الشاعر في البيت الثاني قد لبّى لواعج الشوق الذي قذف به في قلبه الحديثُ عن الطلل في البيت الأول فاستأنف الكلام عنه مرة أخرى ، وعاد إليه ثانية ينقع بذكره غلته ، ويطفئ ببرده ظمأه ، ويشيع ببهجته نفسه ، والاستئناف بالحديث عن الطلل قائم على حذف المسند إليه أي هي ديار لهند والرباب وفرتني .

والعسيب : سعف الجريد ، والزبور ، الكتاب : وهند ، والرباب ، وفَرْتَني أسماء صاحبات الشاعر . والنّعف : ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي وبدلان : اسم موضع . رَوَان . دائمات النظر في سكون . البهمة : الأمر المصمت الذي يعيا الناس به ولا يدرون كيف يحتالون له ؛ والبهمة أيضًا : الرجل الشجاع ينبهم أمره على من ينازله للحرب فلا ينال منه .

ومما جاء على هذا المثال لنفس الشاعر :

ألا عِمْ صَبَاحًا أيُّهـا الطَّلَـلُ البـالي ... وهل يَعِمَنْ من كان في العُصر الخالي ؟

وهـل يَعِمَنْ إلاّ سـعيدٌ مخلّـدٌ ... قليلُ الهمُوم مـا يبيـتُ بأوجـال ؟

وهل يَعِمَنْ من كان أحـدثُ عَهْـده ... ثلاثـينَ شَـهْرًا في ثلاثـة أحْـوَال ؟

دِيارٌ لسَلْمَى عَافِيـاتٌ بِـذِي الخـال ... ألحَّ عليهـا كـل أسْـحَمَ هَطّـالِ

والشاعر يتذكر الماضي السعيد ، فتتكاثر أشواقه ، ويتضاعف تحنانه ، فلا يملك إلا أن يرفع صوته بالدعاء للطلل بأن ينعم ، ويسعد ، ويسلم من كل الآفات ويُحفظ من كل مكروه وسوء ثم يتوالى حديثه عن المكان الذي كان يضم يوما محبوبته ، فهاج ذلك ذكريات كثيرة عنده ، لعل أشدها قسوة عليه أنها ذكّرته بنفسه ، وبأهله الذين تفرقوا بعد اجتماع ، وضربوا في فضاء الأرض العريض ، فتغير بعدهم عما كان عليه ، فمن أين يأتيه النعيم ؟ وفي قوله : (وهل يعمن من كان في العصر الخالي ؟) تُحِسُّ بالحرقة الكاوية التي تحرق فؤاد الشاعر ، والتي تعصف به في عنف وقسوة ، لا يملك معهما من الأمر إلا أن يئن ويتوجع وهو يدير بصرا زائغا شاردا يقلّبه في أنحاء هذه الأطلال فلا تقع عينه منها إلا على شواهد الوحشة والخراب تتمشّى في أوْصَالها .

ولا يخفى عليك أنك تلمح من مخبوء الكلمات ومضمرها في هذا الاستفهام المنفي : (وهل يعمن من كان في العصر الخالي ؟) صورة لقلب الشاعر المنفطر المحترق ولقد أتبعه باستفهامين آخرين ازداد معهما الإحساس بالفقد ، والثكل ، والوحشة والضياع ، قوة ، وغنى ، وثراء . فالتكرار هنا يوثق هذا المعنى ، ويقوّيه ويثبته ، ويُبَيّن لك إلى أيّ مدى تسحق الآلامُ والمحنُ نفس الشاعر فيرجف لها كيانه كلّه في أسى ، وحسرة ويأس ، والتياع .

ثم يستأنف كلامًا يُعرّف به الطلل ، وأن مكانه بذي الخال ، وأن الرياح السوافي والمطر الهَطّال قد اجتمعا عليه ، وتناصرا ، وأذهبا ما به من آثار وأنت

ترى الشاعر قد حذف المسند إليه ؛ إذ هو يريد أن يقول هي ديار لسلمى أو هذه ديار لسلمى . وقوله : (ألا عم صباحا) دعاء للطلل بالنعيم وهم في دعائهم للطلل إنما يدعون لأهله وهذا من عاداتهم ؛ والأوجال : جمع وجل ، بمعنى الفزع والخوف . والأحوال : بمعنى : الأعوام والأسحم : السحاب الأسود : والهطال : الدائم المستمر .

ومما ذكره الإمام عبد القاهر في هذا الباب .

اعتاد قَلْبك من لَيْلَى عوائدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاءَك المكنونةَ الطَّلَلُ

ربْعٌ قَوَاءٌ أذَاعَ المُعْصِرَاتُ بِهِ وكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ ماؤُهُ خَضِلُ

وقواء : لا أنيس به ، وهو المكان القفر وأذاع المعصرات به : أنزلت ماءها بكثرة حتى ذهبت به وطمسته ، والحيران الساري : السحاب المتردد والساري أي يسير ليلا وماؤه خضل : أي يحمل ماء غزيرا .

وأنت ترى الطلل في البيت الأول قد هزَّ الشاعر من أعماقه ، بعد أن أشعل نار الشوق في صدره ، وَهيّج الأهواء الحبيسة في فؤاده ، بعد أن اعتاد قلبه من ليلى على تلك العوائد ، عوائد الهجر بعد الوصل ، والبعد بعْد القرب وهي عوائد ترجع إليها مرة بعد أخرى ، وقد ألِفها قلبُ الشاعر ؛ إذ هي عوائده الخاصة به ، وليست لغيره ، أو لقلب سواه ، ثم تراه بعد ذلك وكأنما شاقه الحديث عن الطلل إلى معاودة الحديث عن الديار ، إذْ ما أحلى الحديث عن كل شيء يذكّر بالحبيب ، فاستأنف حديثا عنها في صدر البيت الثاني حين قال (ربع قواء) : والربع محل القوم ، وكأن السحاب الثقال حين أفرغت ماءها ، وأنزلته بالرّبع ذهبت بمعالمه وطمستْه ، ونقلته من حال الوجود والبقاء إلى حال العدم والفناء أي : هو ربع أو ذاك ربع .

ومثله في حذف المسند إليه عند استئناف الحديث عن ذكر الديار والبكاء على الأطلال ما ذكره عبد القاهر ما تراه من قول الشاعر :

هَلْ تَعْرِفُ اليومَ رَسْمَ الدَّارِ والطَّلَلاَ   كما عَرَفْتَ بجَفْنِ الصَّيْقَلِ الخِلَلاَ ؟
دارٌ لِمَرْوَةَ إذ أهْلِي وأهْلُهُمُ   بالكانِسيَّةِ نَرْعَى اللَّهْوَ والغَزَلاَ

وانظر إلى الشاعر الذي لا يرى فيما بقي من آثار الديار ورسومها سوى ألوان من الفتنة والسحر والجمال ، وهو يبدأ حديثه بهذا الاستفهام الذي يثير النفس ، ويحرّكها من داخلها إلى أن تعرف وأن تعلم ؛ وكأن عليها أن تنهض وأن تقوم لتعرف ، وأن تسعى لتعلم إن كانت قد غابت عنها المعرفة ، وأخْلفها العلم ، أو أنّ ما يتحدث عنه الشاعر من الذيوع بالحسْن ، والاشتهار بالجمال بحيث لا يخفى على أحد ، وكأن (هل) تعرف بمعنى : قد عرفت . ثم نَظَّر بين الحسن في رسم الدار وتنوع أشكالها ، وبين الحسن في توشية الخلل التي تغشى جفون السيوف ومتونها ؛ إذ هما يلتقيان معًا في هذا السحر الذي لا تشبع العين من جماله وفتنته .

والخلل : جمع خلة وهي بطانة يُغَشَّى بها متن السيف ، والشاعر تشيع دار مروة في قلبه ألوانا من البهجة ، وصنوفا من العواطف فيتحرك بدافع من أحاسيسه الفيّاضة إلى تحديد موقعها ، هذا المكان الذي اجتمعت فيه دار أهله بدار أهلها ، والذي شهد مولد حبّهما ، وعاشا فيه أياما كانت كأنها البدر جمالا ، والورد نضرة ، يتراءى لهما فيه المستقبل السعيد مشرقا إشراقة الشمس وعند هذا المكان ، وفي رحابه كان الشاعر وصاحبته يرعيان اللهو والغزل إذ أتاح لهما التلاقي في هذا المكان كل هناءة الحب ، ومتعة الحياة وأنت حين تطالع قول الشاعر في مطلع البيت الثاني (دار لمروة) ترى هذا الكلام وكأنه مقطوع عن سابقه ، واستؤنف به حديث جديد عن دار مروة إذ المقصود هذه دار مروة ، أو تلك دار مروة .

ومما جاء على هذا النحو ما شاع من حذف المبتدأ اطرادا عند القوم في المواضع التي يبدءون فيها بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ثم يتركون

الكلام الأول ، ويستأنفون كلاما يأتون فيه بالخبر من غير أن يذكروا له مبتدأ كما قال عبد القاهر مثل قول الشاعر :

وَعَلِمْتُ أَنِّي يومَ ذا ... كَ مُنَازِلٌ كعبًا ونَهْدَا

قومٌ إذا لَبِسُوا الحَدِيـ ... ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدًّا

فالشاعر هنا صوّال جوّال ممتلئ تيّاه ، يتغنى بشجاعته ، ويذيعها ، ويعلن عنها في تية وكبرياء ؛ إذا نازل في قوة وجبروت (كعْبًا ونَهْدًا) وهما من هما قوة وبأسًا ، ثم قطع الحديث وقال (قوم) وأراد : (هم قوم) وحذف المسند إليه ؛ إذ لا يخفى أن الدلالة عليه قوية ظاهره ومعنى (تنمّروا) : أي تشبهوا بالنمور ، والمراد (بالحلق) : حلق الدروع (والقَدّ) : ما تصنع منه الدروع . وتقرأ قول الشاعر :

هُمُ حَلّوا مِنَ الشَّرفِ المعَلَّى ... وَمِنْ حَسَبِ العشيرة حيث شاءُوا

بُناةُ مكارِمٍ وأُسَاةُ كَلْمٍ ... دِمَاؤُهُمُ مِنَ الكَلَبِ الشِّفَاء

ولا يغيب عنك ما تطالعه هنا من الثناء والمديح ، وأنك بإزاء قوم قد تحقق لهم من الشرف أعلاه ، ومن حسب العشيرة ما لا يضاهيه في رفعته سواه ، وهو حسب ممتدٌ موصول ، لا تحده حدود ، ولا تمنعه حواجز أو سدود ، فهم يضربون في هذا بسهم وافر ، ويصيبون منه كل ما يشاءون ، ثم قطع الحديث وقال : (بناة مكارم وأساة كلم) وقد حذف المسند إليه للثناء والمديح أي هم بناة مكارم وهم أساة كلم ، فأدخل الشاهد مدخل النعت المقطوع لقصد إنشاء المدح ؛إذ القوم ليسوا كرماء بل هم بناة كل المكارم من الجود ، والمروءة ، والنجدة ، والشهامة ، والشجاعة ، وكل ما يستغرقه هذا اللفظ من جميع أنواع المحامد على تنوعها واختلافها ، وهي صفات يستعزُّ بها العربي ، ويتيه ، ويستطيل ، ثم هم (أساة كلْم) إذ يملكون من حسن الرأي ، ومن صائب الحكمة ، ومن قوة النفس ما تندمل به الجراح ، وتبرأ وتسلم وتطيب .

واقرأ ما ذكره الإمام عبد القاهر في هذا الغرض من قول أُسَيْدِ بن عنقاء الفزاريّ في عُمَيْلة الفزاريّ ابن أخيه ، وكان أسيد قد أصابته شدة ، وأخنت عليه الأيام ، ونزل عليه الفقر ، وحلّ به ، ومنعه حياؤه من أن يمد يده يطلب عونا ، أو مساعدة إلى أن جاء عميلة فخلّصه مما هو فيه ، وغير حاله بعد حوار دار بينهما في هذا الشأن يقول أسيد بن عنقاء مادحا بن أخيه :

رَآنِي عَلَى مَا بِي عُمَيْلَةُ فاشتكى ... إلى مَالِهِ حَالِي أَسَرَّ كَمَا جَهَرْ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللهُ بالخَيْرِ مقْبلاً ... له سِيمِيَاءُ لا تَشُقُّ على البصرْ

و(السيمياء) : هنا أمارة الحسن وعلامته (ولا تشق على البصر) : يعني إذا أدام النظر إليها لا يمله ولا يكرهه .

وانظر إلى الشاعر المصور الذي أراك عُمَيْلَةَ ، وهو يستنجد بما له هو ويستغيث يشكو إليه حال عمه والمال ، يستمع ويلبي ويستجيب بعد أن رآه على ما هو عليه من فاقة ، ومتربة ، وفقر ؛ إذ هو يرى أنّ تخليص عمه مما يقاسي منه ، ويعاني ، إنما يكون بهذا المال الذي يبثه هذه الشكوى في مروءة ونجدة ، وكأن ماله يشاركه أحاسيسه ، ويقاسمه همومه ، ويطارحه معاناته

وتجد الشاعر قد قطع كلامه السابق ، وبدأ في إنشاء المدح فقال : (غلام أي هو غلام فالمسند إليه محذوف وكأن الشاعر بعد أن حكى أن عميلة قد اشتكى حاله إلى ماله أراد أن يخص حديثه بعد ذلك بمدح مستفيض فقطع كلامه السابق ، واستأنف كلامًا يمدحه فيه وكأن الحذف للمسند إليه هو الوسيلة التي يظهر بها هذا التميّز ، والتفوق والتّبْريز .

واقرأ قول جميل :

وهَلْ بُثَيْنَةُ يا لَلنّاسِ قَاضِيَتي ... دَيْني ؟ وفاعلةٌ خيرًا فأجْزِيهَا
تَرْنُو بعَيْنَيْ مَهَاةٍ أَقْصَدَتْ بِهِمَا ... قَلْبِي عَشِيّةَ تَرْمِينِي وأرميهَا
هيفاءُ مُقْبلةً ، عجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... ريَّا العِظَامِ بلَيِنِ العيشِ غاديهَا

وأنت حين تقرأ هذا الكلام الذي يصبي المشاعر بسحر بيانه ، ويسبي العقول بقوة أسلوبه ، وسمو إلهامه ، يسترق الأهواء برقة أنغامه ، وعذب ترجيعه ويملك نوازع القلوب ، ويصرفها على إرادته ترى إلى أي مدى يكون سلطان بثينة على قلب (جميل) هذا السلطان الذي يكشفه هذا الهوى المعلن ، ويذيعه هذا الأنين الضاغط المرَجَّع ، وتفضحه هذه العاطفة التي تشيع في الأبيات فتنشر هذا الحب الذي يطول ويحْكُم من خلال هذه اللغة الغزيرة الخصبة التي عبرت عن شعور الشاعر في لحظة محدودة ، والتي مثلت صراعه مع حبه لبثينة التي أرهقته بطول الصد والدلال ، ولم تطفئ ما في صدره من لهيب الحب والجوى ، وحين تدير ذهنك مع أنفاسه الحارة الملتهبة هنا ومن خلال كلماته التي يبث فيها وجده ، ويصب أساه لا تملك إلا أن تتّصل روحك بروحه ، وتمتزج أنفاسك بأنفاسه وأنت تراه يستفهم في استغراق ، ويستنجد بالناس في ذهول وصراخ ، وإنه ليلح في طرح سؤاله كما يلح في طلب الإجابة عنه فلا تملك إلا أن تأسي لأساه ، وتتألم لحزنه إنه يفزع إلى الناس يسألهم هل بثينة قاضية ما له عليها من دين؟ وهل تفعل فيه خيرا فيضاعف لها الجزاء ، ويحتفظ لها بقلبه الذي تصباه حبها وأسره وسباه؟

هو يتحدث عن جمال عينيها اللتين تنفثان السحر من خلال تلك النظرات الوديعة التي تشع منهما فتشيع المتعة في نفسه ، وتثير اللذة في شعوره ، وتشعل نار الحب في صدره ، وتتغلغل في طوايا الصدر فتدميه ، وتصميه ، وتقتله وماذا يصنع أمام هذه النظرة الآسرة التي تديمها نحوه في هدوء وسكون بعينين نجلاوتين كعيني المهاة فتنة وجمالا وسحرا إلا أن يسقط إذ أصابت بهما قلبه فأردته قتيلا بعد أن عجز عن المقاومة فاستسلم لهذا الهوى الذي لا يُغْلب ، وأذعن لهذا الجمال الذي لا يُدْفع ولا يُقْهر ؟

وتأمل قوله : ترنو بعيني مهاة : وكيف صبت كل ما عندها من سحر في تلك النظرة الوديعة التي هي مزيج من السحر والدلال وأدامتها في سكون مثير

وعجيب. وانظر إلى قوله (أقصدت بهما قلبه): وكيف كانت نظرتها إليه كالسهام التي أصابت قلبه، فخر صريعا إذ لم يقوّ على الاحتمال، بعد أن ترامیا هو وهي باللحاظ فسقط هو قتيل هواها شهيد حبها؛ إذ أصابته في مقتل.

وتجد الشاعر حينما وصل بكلامه إلى هذا الحد قطع حديثه وبدأ حديثا جديدا عن القد المشوق، والقوام الأهيف ذلك أن الشاعر يصف لواعجه فيبيّن السر فيها فقال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) فهي ضامرة البطن، رقيقة الخصر غضّة، ناعمة لا عيب فيها، والمسند إليه محذوف أي: هي هيفاء هي عجزاء وكأن الشاعر أراد أن يبين إلى أي مدى يتميز هذا الجزء من المعنى فقطعه عن سابقه، وكأنه أنشأ به مدحا آخر جديدا، وسبيله إلى ذلك أن يحذف المسند إليه ضمير الربط؛ إذ لو ذكره لفاته ما أراد أن ينص عليه، وأن يذكره، وهو وإن كان الشيء المقدر كالمذكور إلا أن ذكره لا يحقق له هذا القطع، فيفوت غرض الشاعر من الاحتشاد الكامل لهذا الجزء الذي يركز عليه من المعنى.

وانظر إلى ما ذكره الشاعر المتوجِّد جميل يعزف على قيثارته أعذب الألحان فيقول:

إنّي عشيّةَ رُحْتُ وَهْيَ حزينةٌ ... تَشْكُو إليّ صَبَابَة لصَبُورُ

وتقولُ: بِتْ عِنْدي فَدَيْتُك ليلَةً ... أشكو إليكَ فإنّ ذاك يَسِيرُ

غَرَّاءُ مِبْسَامٌ كَأنّ حَدِيثَهَا ... دُرٌّ تَحَدَّرَ نَظْمُهُ مَنْثُورُ

مَخْطُوطَةُ المَتْنَيْنِ مُضْمَرَةُ الحَشَا ... رَيَّا الرَّوادِفِ خَلْقُهَا مَمْكُورُ

وأنت أمام أبيات تفيض بالنعيم، وتترقرق بالجمال، وتتدفق بالحب، الحب الذي يفضحه هذا الأنين المرجع، ويكشف عنه هذا الحديث الناغي الناعم يهزج به صوت مؤثر حزين، يخاطب الشاعر في شجى ضارع، وفي صبوة حارقة يبثه نار الوجد، ويشكو إليه أسرار الهوى، ويبعث نحوه أنين القلب، ويقول له بنغم عذب رخيم: (بِتْ عندي فَدَيْتُكَ ليلةً) حتى أجد فسحة

من الوقت أتنفّس فيه بالشكوى ، التي تتجلجل في صدري المكظوم ، وتثور في لفائف القلب الموجوع ، وتعتمل في غيابات الوجدان المشتعل فيموج الصوت بالنغم الشجي ، ينسكب في مسامعه ، فيصْغى في لذة ونشوة ، ويستمع في شوق ولهفة يستعز بذلك ، ويمتلئ ويستطيل .

ولمَ لا يفعل ؟ وقد خرجت صاحبته هنا على كل عرف ، وخرقت كل مألوف ؛ إذ إن من شأن المرأة أن تكون عزيزة لا تنال ، مصونة ، لا تبتذل ولا تمتهن ، غالية لا ترتخص ، مطلوبة لا طالبة ، مرغوبا فيها لا راغبة ، يخر أمامها عشاق الجمال الفذ الفريد يتبتّلُون في محرابها ، يتمنّوْن أن تتعطف عليهم بنظرة ، وأن تَمُنّ عليهم ببسمة حتى ولو من شفة مطبقة ، ولكنها تتدلل ، وتتأبى ، وتتمنع وقد تتمنى من أعماقها ولكنها تسكت في داخلها هذا الإحساس ، وتخمد هذا الصوت إذ يمنعها الحياء وهي في ذلك ما خالفت المنطق في هذا الباب وهو أسلوب يشعل نار الحب في صدور المحبين ويلقي عليه بمزيد من الوقود حتى يزداد توهجا واشتعالا ولكن صاحبة (جميل) قد خرجت على قانون الحب ومنطق المحبين ، فأهانت نفسها ، وهانت على غيرها أو هكذا صورها جميل .

وتجد الشاعر حينما وصل بالحديث إلى هذا الحدّ قطع كلامه ، واستأنف حديثا جديدا عن الوجه المشرق ، وعن الثغر الباسم ، والفم المتألق الجميل ، والحديث المنغم الساحر ، الذي يشبه قطع الُجمان ، ثم عن الحسن المصون في هذا الجسد المستوى الباهر الذي توزع الجمال والحسن على كل شيء فيه والمسند إليه محذوف أي : هي غراء : هي : محطوطة المتنين أي إن جانبي سلسلة الظهر فيها غير ناتئين ولا بارزين فهي حسنة مستوية والشاعر أراد أن يبرز هذا الجزء من المعنى فقطعه عن سابقه ، وأنشأ به مدحًا جديدًا إذ أبرزها في صورتها التي يطل منها الحسن والجمال ، والإشراق .

وذكر عبد القاهر قول الشاعر :

سأشكر عمروا إن تراخت منيّتي أياديَ لم تُمنَنْ وإن هي جَلّت
فتى غيرُ محجوب الغِنى عن صديقه ولا مُظْهِرُ الشكوى إذا النعلُ زلّتِ

فالشاعر سيذكر عمرا بما يجب أن يذكر به كل جواد كريم معطاء ، وسيشكره إن تنفّس به العمر ، وامتد معه الأجل ما بقي حيًّا على ما أفاء من فضل ، وعلى ما أولى من خير ، وعلى ما أسبغ من نعمة ومعروف ، وقد أعطى الجزيل الكثير من غير من أو طلب للمقابل .

والشاعر قطع كلامه عند نهاية البيت الأول ، واستأنف بالبيت الثاني كلاما جديدًا بناه على حذف المسند إليه أي هو فتى وهذا الفتى هو ماجد مسماح كريم ؛ إذ هو غير محجوب الغنى عن صديقه ، وفي هذا من المدح بالكرم والمروءة ، والنجدة ما لا تغيب عنك معرفته ثم هو مع ذلك قوي حازم يواجه الشدائد مهما تكن شديدة ، ويتحملها فلا يئن ، ولا يتوجع ، إذا زلّت نعله ، وتغيرت أحواله ، وأناخ عليه الدهر بكلْكَله .

ومما ترى المسند إليه قد حُذف فيه للذم قول القيشر في ابن عم له موسر سأله فمنعه فتركه حتى اجتمع في ناديهم وهو فيهم فشكاه إلى القوم وذمه فوثب ابن عمه فلطمه على وجهه ، فأنشأ يقول :

سريعٌ إلى ابْنِ العمِّ يَلْطِمُ وجْهَه وليس إلى داعي النَّدَى بسريع
حَرِيصٌ على الدنيا مُضيّعٌ لدينه وليس لما في بيْته بمُضَيع

فأنت تراه وهو يريك ابن عمه في صورة قميئة ممزّقا للأواصر ، قاطعا للأرحام ، باطشا باليد ، ومعتديا بالباطل ، ومستعليا بالغرور الرخيص ، ومفرقا للوحدة ، وناقضا للجوار في سرعة لا تضارع ، لا تجد عنده نخوة الرجولة ، ولا مروءة الإنسان ، ولا تجد عنده قلبا يخفق في المصيبة ، ولا يدا تواسي في الشدة ، فهو سريع في الاستجابة لهواتف الشر بعيد كل البعد عن النجدة

والمروءة والكرم وقطع الكلام عند هذا الحد واستأنف كلامًا جديدًا يزيد من قماءة ابن عمه ، ويضائل من قدره ويرفع من خسيسته ، ويريك إياه في صورة المتهالك على الدنيا الخالد إلى الأرض ، الملتصق بأوحالها ، المضيّع لدينه الحريص على ما في بيته .

وبنى كلامه في البيت الثاني على حذف المسند إليه أي هو سريع إذ أراد الشاعر أن يبْرز هذا الجزء من المقطع فلم يكن أمامه من سبيل إلا أن يقطعه عن سابقه ، ويظهره على هذا النحو .

وجل الشواهد التي طالعتها هنا قد ذكرها الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ولم يذكر لها أحكامًا معينة تكون كالضابط الذي يحكم القضية وإنما أكثر الشواهد من حر القول ، ورائع البيان ؛وكأن الرجل ـ رحمه الله ـ أراد أن يضع القارئ أمام الأهداف النفسية ، والأغراض العقلية ، التي تستحسن الحذف وتستملحه ، فالحذف عندما يتوقف الدارس أمام الأسلوب قبل الحذف وبعده ويعقد موازنته على هذا الأساس ، فإذا وجد أن إسقاط الكلمة وحذفها من الكلام لا يضائل من المعنى ، ولا ينقصه فإن الحذف حينئذ يكون مطلبا لحسن الكلام وارتقائه وتفرّده إذ يخفف إليه كثيرا مما لا يضيف إليه زيادة في المعنى ، أو قوة في الأداء وبذلك يكون الحذف فيه على هذا النحو فضلا عما به من خفة لونا من ألوان الحسن والجمال .

ويؤكد عبد القاهر على هذا بعد أن يورد فيضا من الشواهد في هذا الباب ويتركها من غير تحليل ؛ إذ كان حسن الظن بنا في قدرتنا على تذوقها وإدراك أسرارها فيقول : « فتأمَّل الآن هذه الأبيات ، واستَقْرِها واحدا واحدًا وانظر إلى موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللُّطف والظَّرْف إن أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم فلّيْتَ النفس عمّا تجد ، وألطفت النظر فيما تُحِسُّ به ، ثم تكلّف أن تردَّ ما حذف الشاعر ، وأن تخْرجه إلى لفظك ، وتُوقِعهُ في سَمْعِك ،

فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت ، وأن رُبَّ حذف هو قِلَادَةُ الجيد ، وقاعدة التَّجويد»[1].

والإمامُ عبد القاهر لم يُشر إلى أي معيار معين يرجع إليه ـ كما قلت ـ ولعله كان يريد منا أن نذوق الكلام بالحاسة الفنية التي لا تخطئ كما ذاقه هو ، وكما أحسه ، وعندها وساعتئذ سندرك قيمة الحذف وحلاوته .

لقد وقف أمام هذه الأساليب طويلا ، وتملأها كثيرا ، ووجد فيها جمالا شاع في نفسه ، وسحرا ملأ قلبه ، وأثار اللذة في شعوره ، ورأى أن هذا الجمال الذي راعه ، والسحر الذي أدهشه تَعْجِز الكلمات عن الإحاطة به ، ووصْفه ، ومن ثمَّ فإنَّ الطريق إلى إدراكه يكون بذَوْقِه ، ومعرفة قيمته من خلال موازنة تتم بين الأسلوب قبل الحذف وبعده وسيظهر لمن رزق الحس المرهف ، والذوق المشحوذ أن الكلام مع الحذف له مذاق آخر ، وطعم آخر لا يمكن أن يقاس به في الحسن غيره ، أو أن يضارعه سواه .

ومن ثَمَّ تراه لا يتوقف عند هذا الحد بل ينتقل بك إلى مستوى آخر حين يشعرك بأن الكلام بالحذف أمثل وأجود وأحسن منه قبل الحذف بل تراه وهو يطلب منك أن تعمد إلى هذا المحذوف فلا تقدّره حتى في نفسك بل عليك أن تنساه وكأنه ما كان ؛ ولذا تراه يعرض عليك أبياتا لعبد الله بن الزبير يَذْكُرُ فيها غريما له ، ويتخذ منها أصدق شهادة ، وأدَلّ دلالة على أن الحذف على النحو الذي تحدث عنه خير من الذكر .

عَرَضْتُ على زَيْدٍ ليأخذَ بعضَ ما ... يُحَاوِلُهُ قَبْلَ اعتراضِ الشَّوَاغِلِ
فَدَبَّ دبيبَ البغل يألَمُ ظَهْرُهُ ... وقال : تعلّمْ أنّني غير فاعل
تثاءَبَ حتّى قلتُ : دَاسِعُ نَفْسِهِ ... وَأَخْرَجَ أنْيَابًا له كَالمَعَاوِلِ

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٠٠ طبعة المنار .

وداسع : من دسع يدسع إذا قاء ملء الفم . ودسع بقيئه : إذا رمى به فهو يتهمه بعدم الجدية والإبطاء ؛ إذ لا ينهض في سرعة ليحقق شيئًا مما يحاول تحقيقه قبل أن تعترضه الشواغل ، وتحول بينه وبين ما يبغي وما يريد ثم يعقد موازنة بين دبيبه وبطئه ، ودبيب البغل الذي يشكو ألما في ظهره ، فهو يمشي الهوينى إذ هو موجوع متألم ، يحول ألمه دون انطلاقته وسرعته ، وكأنه يريد أن يبين أن صاحبه مُجْهَدٌ متعب لا يأخذ ما يحاوله دفعة واحدة ؛ إذ هو عديم الهمة .

ثم توقف بذمه عند هذا الحد وقطعه ، واستأنف ذمًّا جديدا بناه على حذف المسند إليه أي : (هو واسع نفسه) فالحذف يظهر تمام هذا الجزء من المعنى إذ أراك إياه في هذه الصورة البغيضة ، إذ يخيل إليك من إعيائه ، وشدة تثاؤبه وإجهاده وكأنه يقذف بنفسه ويخرجها من صدره كما يدسع البعير ما في جوفه ويخرجه من معدته وجرّته ، وحينما تنظر في حذف المسند إليه في الأبيات على نحو ما بينتُ لك تجد الإمام عبد القاهر قد مضى وراء إحساسه ، وذوقه وهو في هذا ما خالف جمال الصياغة في قليل ولا في كثير

ومن ثَمَّ فإن عليك أن تفعل كما فعل الإمام وأن تمضي مع الشعراء فيما هتفوا به بعيدا عن تقدير المحذوف ؛ لأن تقديره يضائل من قدر الكلام ، ويذهب بميزة الحسن التي تميز بها وتفوَّق يقول الإمام عبد القاهر بعد أن ذكر الأبيات السابقة : « ثم إنك ترى نَصْبَة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ ، وتباعده عن وهمك ، وتجتهد أن لا يدور في خَلَدِك ، ولايَعْرض لخاطرك ، وَتَرَاك كأنك تتوقَّاه توقي الشيء تكْرَه مكانه ، والثقيل تُخشَى هجومه »[1] .

وهكذا وبمثل هذه الصراحة حدد الرجل أمامك معالم الطريق ، ووضع

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٠٠ .

قدميك عليه ، حينما طلب منك في صراحة ووضوح أن تنسى هذا المبتدأ المحذوف ، وأن تسقطه من حسابك ، وتبعده من وهْمك ، وتجعله لا يَدُورُ لك في خلد ، وأن توجه شغلك واهتمامك إلى ما جلجلت به أصوات الشعر ، وما دَوَّت به حناجر الشعراء إذ في كل هذا - لا في شيء آخر - تتجلى حسن الصياغة ، ويشرق جمال الأسلوب ، وليس من منطق الروعة في الكلام ، ولا السحر في البيان أن يُدْفعَ كلامُ عبد القاهر بأن فيه مخالفةً لصنعة الإعراب ، وخروجا عما جهر به النحاة فعبد القاهر نحوي بل هو رأس من رءوس النحو البارزين وإن كان قد احتل في الدراسات البلاغية أعلى منارة من منائر البيان .

ومعاني النحو عند عبد القاهر تتجاوز قوانين الإعراب ، والمعايير اليابسة ، والمنطقية الصارمة إلى ما يكون في الصورة من صحة المعنى ودقته ، وجمال اللفظ وعذوبته ؛ ومن ثَمَّ فإنه هنا وفيما نحن بصدد الحديث عنه يبين لك أنّ جلال المعنى يطلب منك عدم تقدير المحذوف ، وأن تسقطه من وهمك وعقلك وحسابك ؛ لأن في هذا بلاغة دونها كل بلاغة ، وهو في هذا يبين أن مجال النحو غير مجال البلاغة ولئن كانت صنعة الإعراب تفرض عليك تقدير المحذوف فإن حلاوة الكلام وبلاغة الأسلوب يحتمان عليك إسقاط المبتدأ وحذفه حتى من قِبَل نفسِك .

وبعد هذا ترى الإمام عبد القاهر يسوق شاهداً آخر يقول عنه إنه من لطيف الحذف لبَكْر بن النَّطَّاح :

العَيْنُ تُبْدِي الحُبَّ والبُغْضَا — وتُظْهِرُ الإبْرَامَ والنَّقْضَا
دُرَّةُ مَا أَنْصَفْتِنِي في الهَوى — ولا رَحِمْتِ الجَسَدَ المُنْضَى
غَضْبَى ، ولا واللهِ يَا أهلَها — لا أطْعَمُ البَارِدَ أو تَرْضَى

يقول عبد القاهر : إن الشاعر قال ذلك في جارية كان يحبها ، وسعى به إلى أهلها فمنعوها منه وأنت ترى أن الشاعر هنا قد أوتي من القوة في الفن ،

والعذوبة في الأداء ما يحمل النفس على الإعجاب بسحر بيانه ، الذي يسترق الأهواء وانظر إليه وهو يجعل من العين رسولا يحمل إلى القلب رسالة الحب أو البغض إذ هي التي تنقُل إليه وضاءة الحسن من جمال رائع لا ينال فيخفق بالحب ، ويضطرب بين الجوانح ، أو تنقل إليه الدمامة والقبح فتميت فيه أشواق الحياة ، وتخرس فيه أغاريد المنى ، وشدو الحمائم ، وتغتال فيه أحلام الحب ، وطلاقة الحياة فيكره ويبغض .

وفي البيت الثاني يتحدث عنها حديثا يستعطف فيه ويسترحم ؛إذ يراها جوهرة تشرق وتتألق ، وتملأ القلب فتنة ، والعين سحرا ، ولكنها جارت عليه فلم تنصف حبه ، ولم ترحم جسده المتهالك ، ولا جسمه المتداعي المتَهَدّم ، ثم يصل إلى البيت الثالث ، وفيه كما في الثاني حذف ؛ إذ يريد : (هي غَضْبَى أو غضبى هي) وإنما حذف لتمييز هذا الجزء من المعنى ، وبعد ذلك أقسم على أن يجانب ويترك هانئ العيش ، وحلو الطعام حتى ترضى .

وعبد القاهر يعلق على الحذف هنا فيقول : « والمقصود قوله : « غضبى» وذلك أن التقدير : « هي غَضْبَى» أو « غضبى هي» إلا أنَّك ترى النفس كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف ، وكيف تأنس إلى إضماره ؟وتَرَى الملاحة كيف تذهب إن أنت رُمْتَ التكلم به ؟» [1]

ومن جيد الأمثلة في هذا الباب قولُ الآخر يخاطب امرأته ، وقد لامَتْهُ على الجود :

قَالَتْ سُمَيَّة قد غَوَيْتَ بأنْ رَأَتْ ... حقًّا تَنَاوَبَ مَالَنَا وَوُفُودُ

غَيٌّ لَعَمْرُكِ لاَ أَزَال أَعُودُهُ ... مَا دَام مَالٌ عندنا مَوْجُودُ

المعنى : « ذلك غَيٌّ لا أزال أعود إليه ، فدعى عنك لومي» ولاشك أن الحذف في كل ما سبق فضلا عن الهواتف النفسية التي تفرضه ، وقرائن السياق

(١) دلائل الإعجاز صـ ١٠١ .

التي تعين على فهمه ؛ فيكون وجوده زيادة في الكلام لا تثمر ثمرة هو سبيل من سبل تحريك العقل ، وإشغال الفكر ، وإشعال الذهن وبعث الخيال ، وذلك من خلال الدعوة إلى التحليق في أفق العبارة ، ومحاولة فهمها ، وتقليبها على جميع وجوهها ، وإدامة النظر إليها ، وتأمّلها وتملّيها ، حتى يتم الوصول إلى المراد منها ، والوقوع على المحذوف فيها وترك الزائد الفاضل الذي يجب أن يُطْوى ، وأن يستغنى عنه ؛ لأنه لا قيمة تنبعث من وجوده ، ولا جدوى تعود من ذكره ، ويكون التخفّف منه بِطَرْحِه ، وإسقاطه مطلبًا من مطالب الحسن ، يرقى به الأسلوب ويجود ؛ إذ ينقي ويغْزرُ ويغربل ويختصر ، فلا يبقى إلا ما لا يمكن أن يستغنى عنه وما يتأثر المعنى بحذفه ، وما يتطلبه الموقف ، ويقتضيه الغرض ، ويكون ذكر ما زاد على ذلك تورّما في الأسلوب ، وتمطيطًا وتمديدًا له بلا مقتض مما يجعل الذكر هنا أشبه بالعبث الذي يجب أن يبرأ منه كلام البليغ وأن يسلم .

ولا يجادل منصف في أن الأسلوب حين يأتي ممدودا مترهّلا ذاكرا ما لا حاجة تدعو إلى ذكره هو أسلوب يحول دون إشغال الذهن بالتفكير والتّولد إذ هو يكاشف بكل شيء فيه ، بظاهره ، وخفيّه ، وبارزه ، ومكنونه ، ويصارح بواضحه وغامضه مما لا يدع فرصة للتأمل ، والدرس ، ولذة التنقيب والبحث وكلها وسائل للوقوع على ما له من خصائص ، وما فيه من أسرار ، وما يتردّد فيه من مزايا .

هذا وما لا يغيب ولا يخفى أنك حين تراجع المواطن التي جاء فيها الحذف بعد ذكر المنازل ، والأطلال والديار تراها من أقرب الأشياء تعبيرا عن نفسية الشاعر لأنها تتصل بموضوع مثير يَمَسُّ عاطفته الجياشة مسًّا قويًّا ، ويهزُّها هزًّا عنيفا ، فهذه المواطن تقف بالشاعر عند الأماكن التي شهدت مولد حبه ، وعبثه فهي تحدّد الديار وتخصّصُها ، وهي ديار لصاحبات الشاعر ، وخليلاته ، ديار لسلمى ، ولمروة ، والرباب ، وفرتني . وغيرهن فالحذف هنا

وارد لقوة الدافع والمثير ، ولشدة الانفعال ، ولفيض التأثر بهذا الجزء من المعنى الذي ترى الشاعر فيه ، وكأنه يستنجد ، ويبكي ، ويسترحم ، وبمثل هذا تُفسّر الخُصُوصية عند ذكر الرجال أو النساء ، مدْحًا أو ذمًا على نحو ما مثل الإمام عبد القاهر بالشواهد التي حذف المسند إليه في مواقف معيَّنة جرى العرف بالقطع والاستئناف فيها لمواصلة الحديث عندما تهتاج عاطفة الشاعر ، وتزداد حدّة انفعالاته ، ويشتد تأثره وهو يمدح أو يهجو ، يستحسن أو يستقبح فيقطع الكلام اللاحق عن السابق ، ويستأنف مقطعا جديدًا ينبّه فيه ويقيمه على حذف المسند إليه على نحو ما أفاض في ذكر شواهده الإمام عبد القاهر كما سبق أن رأيت .

هذا ، ويحذف المسند إليه بالإضافة إلى ما سبق ذكره عند الإمام عبد القاهر في بدء قصائد النسيب ، والحديث عن الأطلال ، وما أسماه بالقطع والاستئناف عندما يبدءون بذكر الرجل ، ويقدّمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ، ويستأنفون كلامًا آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتوا بخبر من غير مبتدأ نحو ما أفضنا في أمثلته .

هذا ، وقد يحذف المسند إليه لغير ما سبق لدواع منها : لتعينه حقيقةً وذلك حين لا يتوهم أن يكون الخبر لغيره على جهة الحقيقة ؛ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد:٩) فأنت حين تتوقف أمامه وتديره في عقلك تروعك هذه الحقيقة وتذهلك وأنت تجدّ في البحث عن الموقع الإعرابي لقوله سبحانه : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ وتنتهي إلى أنه خبر وأن مبتدأه متعيّن محذوف فليس هناك من يعلم الغائب والحاضر ، والظاهر والباطن ، الواضح ، والخفي ، إلا واحد أحد لا يشاركه في هذا غيره ، ولا ينازعه في هذا سواه إذ هو وحده صاحب العلم الكامل الشامل الذي يشمل ما عجز الخيال حتى عن مجرّد تصوّره لا عن عده وحصره ويا له من إله كبير متعال يقر الوُجدان بتعاليه ، وتفرده بذلك ولذا جاء بعد هذا

قوله سبحانه : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ وهكذا ينتهي علم الله الشامل إلى كل شيء فلا يغيب عنه شيء أبدًا .

وعلى هذا النحو من حذف المسند إليه لأنه متعيّن قولك : (خاتم النبيين محمد ﷺ» فخاتم النبيين خبر لمبتدأ محذوف وإنما حذف لأنه متعين للحبيب المصطفى ﷺ .

ومما يحذف لتوهم أنه متعين وأن الخبر لا يكون لغيره لبلوغه فيه حدًّا يصل به إلى الكمال ما تجده في قوله تعالى حكاية عن ملأ فرعون في شأن سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:٢٤) أي : (هذا ساحر كذاب) فحذف المسند إليه ، إذ الملأ يقصدون أن قولهم : ساحر لا ينصرف إلا إليه ، ولا يعرف به أحد غيره ، إذ غلب عليه ، واشتُهر به ، وبلغ حد الكمال بحيث إذا قيل : «ساحر» انصرف إليه ولزمه ، ولصق به .

كما يحذف المسند إليه لتعيّنه ادعائيا وترى هذا في مثل قولهم (أمير الشعراء) ويقصدون أحمد شوقي فالحذف هنا لهذا التعيين الادعائي لقيامه وفقا لارتضاء وادعاء أغلبية الشعراء الذين نصبوه وارتضوه أميرا للشعراء .

ومن حذف المسند إليه للتعين والذيوع والاشتهار ما تجده في قول الله تعالى في شأن القرآن الكريم:﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) وأن حين تقرأ قول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي ذلك الكتاب القاهر المعجز الذي لا يملكون أن يصوغوا على مثاله أو على أقصر سورة منه والشأن في هذا الإعجاز في الكتاب هو الشأن في خلق الله جميعا فأنت ترى أن الكمال المطلق يطل عليك من هذا التعبير الواصف ، وكأن التعبير : (هذا هو الكتاب الكامل لا غير) وامض في قراءتك وحاول أن تتملى القول الكريم ، وأن تتأمله وإنك لواجد أن قوله سبحانه : ﴿ هُدًى ﴾ إنما وقع خبرا لمبتدأ محذوف وأن هذا المبتدأ هو ضمير الكتاب وأنك لو قدّرته فقلت : «هو هدى»

لنبا به مكانه لأن المسافة قريبة بين الضمير وبين ما يعود عليه وهو الكتاب الذي ما زال ماثلاً لدى النفس ، حاضرا أمام العين فكانت البلاغة في حذف المسند إليه لذيوعه ، ومعرفته ، واشتهاره .

كما يحذف المسند إليه لضيق المقام والسبب وراء هذا الضيق هو القلق والضّجر ، والحزن ، والشدة إذ ليس من بلاغة النفس أن تتوقع من الضَّجِر القلق المهموم بَسْطا للحديث ، أو إفَاضة في الكلام ، أو تدفقا في البيان ؛ فهو ليس قرير العين ، ولا رضي النفس ، ولا منشرح الصدر لذا تجده يقتطع كلامه اقتطاعا ، ويختزله اختزالاً فلا يتمم أركان الجملة العربية ، وإنما يغفُل بعضها ، ويترك من الدلائل الماثلة ، والشواهد القائمة ، ما يكشف عن هذا الضجر والضيق .

وتجد هذا في أبيات المتنبي التي ذكرناها في موطن آخر والتي أفضنا في الحديث عنها كشاهدٍ لحسن الحذف بالنسبة للمسند إليه حينما يقع موقعه الصحيح ، ويكون هناك من قرائن الأحوال ما يعين على فهمه ومن شواهد هذا ما تجده من الذيوع والشهرة بحيث لا تجد كتابا من كتب البلاغة قد أغفله وهو قول الشاعر :

قال لي كيف أنت؟ قلتُ عليلٌ سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلٌ

ولا يخفى عليك ما يشف عنه هذا السؤال الذي طرحه المستفهم على المخاطب ، ولن تبحث طويلا في علة هذا الاستخبار ؛ لأنك ستدرك أن السائل شاهد من أحوال صاحبه تغيُّرا ، وطالع من صورته ألوانا ، غير التي طالعها فيه من قبل ، فحثه هذا على أن يستخبر ويستفسر ، فكان هذا السؤال كيف أنت ؟ وكان الردّ باقتطاع جزء مهم من الكلام «عليل» و«سهر دائم وحزن طويل» أي أنا عليل ، وحالي سهر دائم وحزن طويل ، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنك تجد في عناصر الجواب ما يشي بهذه المعاناة ، وما ينبئ عنها ،

ويحجم الضيق الذي يملأ كِيانه ، ويعتصر وجوده ، مما جعل الرجل يقلّل كلماته تقليلا ، ويختصرها اختصارا .

وانظر إلى هذا القول الكريم من قرآن ربنا العظيم الذي يكشف لك عن غاية الآلام والأوجاع والبرح التي عصفت في عنف وقسوة بكيان السيدة (سارة) زوج أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن بشرته الملائكة بغلام عليم : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (الذاريات:٢٩) فالكلمات هنا تحمل رسالة الحزن ، والتوجع ، والالتياع ، وتعبر عن قوى الضيق ، والألم ، والمجاهدة ، والمعاناة ؛ ومن ثمَّ كان حذف المسند إليه في قول السيدة (سارة) انعكاسا للموقف الضاغط ، وترجمة للأحاسيس النفسية المثقلة بالهموم ، والأحزان ، والأوجاع فاختطفت الكلمات اختطافا ، وكأنها تعاني نزعا ، أو تعالج احتضارا ، وأسقطت المسند إليه من كلامها بعد أن أذهلتها المفاجأة التي جعلتها من هول الموقف وكأنها لا تقوى على الكلام فقالت : ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ بحذف المسند إليه وعدم ذكره فلم تقل : وأنا عجوز عقيم إذ لم تتصور أن تحمل وأن تلد بعد أن تولى الصبَا ، وجفّ العود ، ووهن العظم ، وغاض ماء الشباب ، وآذن البدر بالأفول ، ومالت الشمس للمغيب ، واشتعل الرأس شيبا ، فإذا أضفت إلى ذلك طبيعة التكوين النفسي للمرأة ، وعدم ميلها إلى إظهار سنها ، وعدم رغبتها في التسليم بالشيخوخة ، وأنها فقدت وظيفتها كامرأة ، وأنها أضحت من سقط المتاع يستبدل غيرها بها ، إذ لم تعد شيئا يؤبه به ترى حذف المسند إليه جاء مع كل تلك المشاعر الرافضة والمتزاحمة .

ولا محل لأن يثار في وجه هذا الكلام بما قد يظن أنه ينقضه حين جاء المسند إليه مذكورا في الكلام في موطن آخر كما سجل القرآن في سورة هود حين ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (هود:٧٢) إذ لا يستبعد أن يكون هذا الكلام قد جاء منها مرة أخرى

ودار بينها وبين زوجها ، ومن ثَمَّ ذكرت أمامه ما حذفته وأخفته هناك ، أو أن يكون هذا الكلام قد قالته بعد فترة من الوقت كانت قد هدأت بعدها نفسيتها ، وسكنت لواعجها ، فقالت ما قالت على أن مما يقوي هذا الكلام السابق الذي أفضت به من أنها لم تزايلها أحاسيس الأنثى ، ولم تستطع أن تتخلى عنها ، بعد هذه السن المتقدمة ما تراه في الكلام من إشارة رامزة فيما حكاه القرآن على لسانها ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ ولاحظ التعبير باسم الإشارة هنا وما يوحي به من تحديد وتمييز على أكمل ما يكون التحديد والتمييز ، فإذا كان السن قد تقدم بها ، وإذا كانت قد كبرت وصارت عجوزا ليس لمثلها أن تلد ، فإن زوجها المشار إليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ صار شيخا كبيرا طاعنا في السن ، وإذا كانت قد فقدت وظيفتها في الحمل بسبب كبر سنها ، فإن زوجها في الجانب المقابل هو شيخ كبير وهي بهذا تَشْرح سبب تعجبها وولهها ، وحزنها .

ومن دواعي حذف المسند إليه اتباع الاستعمال الوارد في تركه وحذفه كما في قولهم : « رَمْيَةٌ مِن غَيْر رَامٍ » و« شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُها مِنْ أَخْزَمٍ » ففي « رمية من غير رام » حذف المسند إليه أي : هي رمية موفقة ممن لا يحسن الرمي ولا يجيده وهو مثل يقال لمن يوفق في إتقان عمل ليس أهلا لأن يتقنه ويجوّده وإنما جاء منه عفو الخاطر ، ومصادفة من غير قصد وفي قوله : « شنشنة أعرفها من أخزم » أي هي شنشنة وطبيعة وغريزة و« الأخزم » ابن قائل المثل ، وعلى هذا النحو تجد كثيرا من الأمثال قد وردت والمسند إليه فيها محذوف كما في قولهم : « قضية ولا أبا حسن لها » أي هي قضية .

ومنه قولهم في النعت المقطوع إلى الرفع لقصد إنشاء المدح أو الذم ، أو الترحم : نقول : (رضي الله عن عمر أمير المؤمنين ، الخليفةُ العادل) برفع الخليفة ، وعدم جرها على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الخليفة ، وتقول : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيمُ) برفع الرجيم ، وعدم جره بعد قطعه

وإعرابه خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو الرجيم ومنه قولهم : (اللهم ارحم عبدك الفقيرُ) برفع الفقير ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو الفقير .

ومن دواعي حذف المسند إليه المحافظة على الوزن أو السجع أو القافية خذ قول الشاعر :

عَلى أَنَّني رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهَوى وأخلُصَ منه لا عَلَيَّ وَلا لِيَا

وأنت حين تهيئ العبارة الأخيرة في ذهنك تهيئة إعرابية ، وتنظمها على نحو ما تقضي به قوانين النحو ورسومه تجد المسند إليه قد غاب من الكلام ، وسقط من التعبير ، ولم يذكر ، والعلة الباعثة على عدم ذكره وحضوره هي المحافظة على الوزن العروضي ، وأصل الكلام بعد تقدير المحذوف : (لا على شيء ولا إلى شيء) حذف المسند إليه فيهما ، وهو لفظ «شيء» لأن في ذكره إفسادَ وزن البيت وخذ قولهم : (مَن كَرُمَ أَصْلُه وُصِلَ حَبْلُه على تقدير وصل الناس حبله) ، فالمسند إليه إنما حذف للتناسب الإيقاعي في السمع وعلى هذا النحو ما تجده في مثل قولهم : (مَنْ طَابَتْ سَرِيرَتُهُ حُمِدَتْ سِيرتُه) إذ لو قيل «حمد الناس سيرته» بذكر المسند إليه لاهتز التوازن النغمي واختلف إعراب الفاصلتين .

ومن دواعي الحذف للمسند إليه قصد المحافظة على الوزن والقافية ويظهر هذا واضحا في قول الشاعر :

وَمَا الْمَالُ والأَهْلُونَ إِلاَّ وَدَائِعُ وَلابُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

فليس المال والأهلون سوى ودائع ، ولابد أن يرد الناس الودائع ، فحذف المسند إليه وهو لفظ «الناس» للمحافظة على القافية ، ولولاها لاختلفت لكونها مرفوعة في الشطر الأول ، ومنصوبة في الشطر الثاني .

هذا وقد يدعو إلى حذف المسند إليه دلالة المقام عليه ، وإشارته إليه ، وفهمه منه في إبانة ووضوح ، واقرأ قول الله ـ تعالى ـ في أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأنت حين تُدير بصرك في قوله سبحانه : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ تجد هذا البدء الحاسم الصارم في هذا المطلع القوي الصريح الذي يشعر الإنسان إلى أي مدى يكون اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في المجتمع ، ومدى عمق هذا العنصر وتجذّره في الحياة الإسلامية ، وفي عقيدة المسلمين وفي وجودهم ففرضية الأخلاق والآداب كفرضية العقوبات ، هذه الآداب والأخلاق المركوزة في الطباع ، والتي ينساها الناس تحت تزييف الوعي ، وتحت تحذير المؤثرات والمغريات والانحرافات ، والتي لا يجب أن يجافيها الناس أبدًا ، ولا أن يغيبوا بعيدا عنها تحت أي مؤثر أيا كان ، ولذا كان فرضها ، والإلزام بها ، والعقوبة على مخالفتها وتركها واجبا مشروعا .

ولا يخفى أنّ المسنَد إليه مفهومٌ من دلالة السياق ، فَهْمًا لا يجعل من ذكره ضرورة مع وجود هذه القرينة ، التي تتحقق من كون الآية بداية لسورة أي هذه سورة .

وتجد على هذا النحو قوله تعالى في بداية سورة التوبة ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .إذا المقصود ـ والله أعلى وأعلم ـ (هذه براءة من الله ورسوله) بحذف المسند إليه وإنما أغنى عن الذكر هذه القرينة المعنوية المفهومة من السياق البلاغي للكلام ؛ إذ المفهوم من الآية كما هو واضح من عرضها ، وسياقها وفحواها أنها تتحدث عن قتال فئة معينة من المشركين ، وهم المشركون المعاهدون الذين نقضوا عهدهم ، ليس إلا بحيث إن تحميل الآية فوق ذلك تحميل لها بما لا تحتمله لتحميلها أنها شاملة لقتال كل مشرك إطلاقا ، وأين عدم الإكراه في الدين ؟ وأين الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وأين الحث على البر والإحسان لمن لا يقاتل المسلمين ، ولا يخرجهم من ديارهم ؟ وهي رسالة الإسلام السمحة الرشيدة .

ومن دواعي حذف المسند إليه على نحو ما ذكره البلاغيون صيانته عن الألسنة كقولك : (ثاني الراشدين) تقصد سيدنا عمر الذي حذفته ولم تذكره ؛

لأنك تريد أن تجلّه ، وأن تكرّمه ، فتمنعه من أن يجري الذكر له على لسان يخوض في أعراض الناس ، ويتَمرَّغ في أوحال اللَّغْو والوشاية والنميمة .

وإذا كنت قد نزّهت المسند إليه ، وارتفعت به إلى المحل الأرفع فلم تشأ أن تجعل اسمه جاريا على لسان لا يتورع عن الحديث في المعايب والمساخر والخوض في الهمزات والسقطات ، فإنك في المقابل قد تحذفه لأنه سوأةٌ من السوآت ، وعورةٌ من العورات ، ولأنه من الضّعَة والهوان ، ورداءة النفس ، وقذارة الطبع ، وبلادة الحس مما يحضك حضا ، ويدفعك دفعا أن تنزّه لسانك عن جريان اسمه عليه ، ومروره به ، حتى لا يصاب بالتّقزّز والاشمئزاز من مجرد نطقه به كذلك تطويه في الكلام ، وتضمره وتخفيه ، ولا تذكره كما تقول : (ملعون مدحور) وأنت تقصد إبليس اللعين فتحذفه من أجل ذلك ، وتبعده من حديثك ، ولا تنطق به .

ومن مرجحات الحذف ودواعيه تأتيّ الإنكار ، وتيسّره ، وحسن التخلص عندما تدعو إلى ذلك حاجة ؛ إذ قد تجد من المواقف ما يفرض عليك لونا من ألوان الأداء القولي لا يقلقك ، ولا يثير حولك جوًّا من الجدل والخصومة والمتاعب ، وإنما ييسر لك طريقا للتفَلُّت والخروج مما يظن معه التورط فيما لا يحب ولا يرضى ، فلو أنّ جمْعًا من الناس قد التقى بك ومن بينه خصم لك وتكلمت مع آخر ، فقلت : (مجرم فاسق) تقصد بذلك فلانا خصمك وتعنيه ، ولا تعني أحدا سواه فإنك تضمر ذكر اسمه ، وتخفيه ، ولا تعلن حتى لا تتعرض للومه لك في أي وقت من الأوقات ، وحتى تنكر هذا اللوم لو تعرضت له وتدفعه إذ ييسر عدم الذكر لاسمه أن تنفي عن نفسك التهمة فتقول : ما قصدتك وما أردتك .

ومما هو ذائع جهير في غير هذا الباب ما فعله ابن الْقَبَعْثَرَى حين ذكر اسم الحجاج عنده فدعا عليه قائلا : «اللهم سوِّد وجهه ، واقطع عنقه ، واسقني من دمه» من غير ذكر لاسمه ، ولما مثل بين يديه ، وعرضت عليه تهمته ، وردِّد

على مسامعه من قوله ردّ على الحجاج قائلا : ما عنيتك وإنما عنيت العنب ، وقصدت بسواد الوجه استوائه على سوقه ، وبقطع عنقه قطع العناقيد ، وبالسقي من دمه تناول العنب وما به من عصير وشراب وبمثل هذا المنطق استطاع ابن القَبَعْثَرَى أن يسقط ما اتهم به ، وأن يطوي قصده من خلال التوجيه للكلام .

كما يحذف المسند إليه إذا كان المقصود الفعل «المسند» في ذاته ، بغض النظر عن فاعله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤).

وأنت ترى في هذا التصوير صورة حقيقية لما يئول إليه مآل الإنسان بعد أن يعيشَ في هذه الدنيا هدفا للمصائب ، وغرضا للنوائب ، وهي صورة واضحة المعالم ، ظاهرة الشيات ، لا تضخيم فيها ، ولا تهويل ، ولا تلفيق ، ومع ذلك تتراءى لك منها ظلال وألوان تجعل النفوس تعتلج من الخوف ، وتجعل المفاصل ترتجف من الرهب ، وتجعل القلوب تخلع من هول المصير

فليتملّ الخيال ما شاء له التملي صورة الناس في ساحة الحساب ، وليركز على نموذج معين كان يتخذ له من دون الله آلهة يشركهم معه في عبادته وكان يفاخر بما عنده ويباهي ، وكان يستعلي ويتجبر ، لينظر إلى أفراد هذا النموذج وهم في ساحة الحشر والحساب منفردين ، وقد تجردوا من كل شيء السلطان الذي يحكم القوة التي تطغى ، الملك الذي يستبد ، الجاه الذي يظلم ، المال الذي يتحكم ، الولد الذي يرفع ، العشيرة التي تمنع ، لقد تجردوا من كل هذا وتركوه وراءهم ، وجاءوا إلى ربهم من غير أن يكون معهم شيء جاءوا إلى ربهم الذي يتحدث عن نفسه بضمير الجمع المعظم لذاته ، فلا عظيم غيره ، ولا ملك سواه ، وفي ذلك من إعلان سلطان العزة والكبرياء ما فيه جاءوا إلى ربهم على هذا النحو على غير رغبة منهم ، وعلى غير مشيئة ، ولا إرادة ،

جاءوا حفاة عراة غرلا ، كما جاءوا إلى الدنيا أول مرة حين ولدتهم أمهاتهم وتركوا ما كانوا يستعزون به ويستطيلون مع أن الله هو الذي خوّلهم إياه .

ثم نرى صورة للتبكيت ، والهزء ، والسخرية ترتسم من خلال هذا الخطاب الحي المثير الذي يهز الوجدان ، ويوقظ النفس والذي تجده في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا ﴾ والذي ينفي فيه نفيا قاطعا رؤية شفعائهم الذي عبدوهم من دون الله ، واتخذوهم آلهة وكأنه يلفت لفتا قويا إلى أنه يبحث عنهم ، ويفتش فلا يجد لهم أثرا زيادة في التبكيت والتوبيخ ، إذْ ذهبوا مع كل ما ذهب ، وبقيت الحقيقة الوحيدة تدمغهم بواقعها الذي يعيشونه ، حينما ينظرون أمامهم ، وحولهم ، وفي أيديهم ، وفي كل اتجاه فلا تقع أعينهم على شيء إذ لا شيء أصلا هناك ، لا المال ، ولا الأهل ، ولا الولد ، ولا آلهتهم الذين عبدوها من دون الله وفي ذلك من التقريع ، والخزي ، والتبكيت ، والتوبيخ ما يزيدهم عذابا فوق عذاب ، وألما فوق ألم .

ثم يجيء الفعل : ﴿ تَّقَطَّعَ ﴾ ليرسُم صورة للنهاية الكئيبة التي انتهت إليها علاقتهم مع أصنامهم ، ومع كل شيء الأهل ، والمال ، والولد لذا جاء والقصد منه إثباته في ذاته بصرف النظر عن فاعله لذا لم يذكر له فاعل لأن ذكر الفعل على هذه الصورة في هذا السياق جاء مغنيا عن ذكر الفاعل «المسند إليه» إذ المراد أن التواصل الذي كان موجودًا في الدنيا قد تقطع اليوم ، فحل التقاطع محل التواصل ، فكأن المعنى لقد تحقق التقاطع بينكم وتم .

وانظر إلى الحذف في قوله تعالى : في شأن يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف:٣٥) وهكذا أرادوا أن يضعوا حدًّا للجدل الدائر ، وللكلام الرائج ، واللغط المثار حول يوسف ـ عليه السلام ـ وامرأة العزيز ، وإسكات هذا اللغط إنما بدا لهم في الزج به في غياهب السجن ، وهو البرىء الذي يعلمون براءته ، وفي تقديرهم

أنهم حين يرمون به وراء القضبان ، وخلف الأسوار سيكون داعيا لنسيان قصته ، وَطَيّ صفحته ، وعدم الخوض فيما وقع ، وكأن العاصفة ستهدأ بذلك ، وتسكن الريح ، وسَيَعُم الإشراق والصفاء ، وسيعود لبيت العزيز مرة أخرى الضياء الذي كان يشع فيه ، والنعيم الذي كان يغمره ، والأنس الذي كان يملؤه .

وأنت تبحث عن المسند إليه هنا في قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾ فلا تراه وحين تدير نظرًا متريثا في الفعل مرة أخرى تجد أدوات التأكيد تتزاحم فيه ، فكأن الفعل بما فيه من التأكيد قد أغنى عن ذكر المسند إليه[1] إذ سجل ما بدا وما دار في عقول هؤلاء المتحاورين المتشاورين في شأن يوسف ـ عليه السلام ـ ولم يكن يستحق شيئا غير السجن ، والسجن وحده فكأن قدر الله أن ينال من غِيَرِ الدهر ونُوَبه وكوارثه ، وذلك بالمكث في السجن بضع سنين .

ومن مرجحات حذف المسند إليه بناء الفعل للمجهول ، ونسيان الفاعل ، وعدم ذكره على نحو ما تجده في قوله تعالى في شأن سحرة فرعون : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ (الأعراف:١١٨-١٢٠) وأنت تجد أن المسند إليه في قوله : (فغلبوا) قد حذف من غير إشارة إلى الغالب الذي غلب ؛ إذ المقصود التركيز على المغلوب لا على الغالب ، وبيان أن الذين غلبوا هم السحرة ، وأن سحرهم لم ينفع ، ولم يغن فتيلا إذ أبطل وهم أهل حذق فيه ، وفن ، ومهارة فكانت هزيمتهم هنا هي الهدف المقصود بالتركيز عليه ، وذكره .

ولعلك تتوقف أمام قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فترى سحرا وجمالا ، ترى حقا يَغلب ، وباطلا يسحق ويهزم وتذهب لتدير عقلا واعيا في عصا موسى التي حسمت الموقف ، وفصلت في القضية ، ووصلت بها إلى النهاية المعلومة التي انتهت إليها بعد أن ابتلعت إفكهم ،

---

(١) من بلاغة القرآن صـ ١٥٠ دكتور أحمد بدوي .

وتلقفت باطلهم ، وأوقفتهم عرايا أمام ضمائرهم حيث أبصروا منها وشاهدوا ما لا عهد لهم به ، وما لا يمكن أن يكون من سحر السحرة الذي يحذقونه ، ويجيدون فنونه ، وحين تدير في هذه العصا ذهنك ، وتقبض عليها بيدك ، فسوف تجدها كغيرها من العِصِيّ قطعة من الخشب الذي تتعامل معه ، والذي تراها في بيتك ، وفي كل مكان وهي هكذا مع موسى ـ عليه السلام ـ حينما يقبض عليها بيده ، ويمسكها بيمينه ، أما حين يلقى بها على الأرض فهي شيء آخر ، إذ إن روحا من عند الله يمسها فإذا هي حية أو ثعبان ، أو جان تتحرك في قوة بقدرة الله القاهر الذي لا يغلب لتلقف الباطل ، وتنهي الجدل الدائر ، وتحسم الصراع في لحظة خاطفة مما كان وراء زحزحة السحرة المعاندين عما كانوا عليه وفيه ، وتحولهم في سرعة إلى الإيمان الكامل بعد أن تبينت لهم الحقيقة كاملة كأنها فلق الصبح فخروا لله ساجدين ، وأعلنوها في قوة : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ (طه:٧٣).

هذا ومن البلاغيين من نص على حذف الفاعل «المسند إليه» من غير أن يسند لنائب الفاعل ، ومما استشهدوا به قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٦-٣٠) وأنت تقرأ هذا القول الكريم وهو يصور لك مشهد الاحتضار المقبل ، فتشاهد منه صورة هذا المحتضر الذي لا يملك لنفسه نجاة ، ولا للموت دفعا ولا ردًّا ها أنت تراه يعاني من سكرات المنية ، ويجود بنفسه خائضا لجة الموت ، والروح تنزع من جوارح الجسد وأعضائه نزعا ، وتؤخذ منها أخذا ، حتى تبلغ أعلى عظام الصدر عند الترقوة ، ويخذل اللسان ، وتذهب القوة ، ويرخى الجفن ، ويدخل في الحشرجة ليفارق الحياة .

والآية وهي ترسم صورة هذا المحتضر على فراش الموت تراها تتحدث عن تلك المجاهدة التي يعيشها من يعاني ألم النزع حين يعلو صدره ويهبط فيذكر الفعل ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ ولا يذكر الفاعل المسند إليه «الروح» سر

الحياة ، إذ إن الفاعل هنا متعين ومعروف ، فليس هناك من شيء سواها ينسل من جوارح الجسد انسلالاً ، حتى يبلغ إلى هذا المكان الذي لابد أن يفارقه وأن يتركه على أن القول الكريم : ﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ يرمي بنظرةٍ عجلى وسريعة إلى من حول هذا الذي يجود بأنفاسه عند أهله ، وأصدقائه ، وعشيرته ، وحيرتهم ، وفزعهم وهلعهم وهم يرونه أمامهم مسجًّى ممدَّدا يعالج النزع ، ويقاسي الاحتضار فيتساءلون في فزع هل من راق يرقى ، أو طبيب يؤاسي ؟ ولكن الزمن زمن الحشرجة ، والروح في طريقها إلى مفارقة الجسد ، وسكرة الموت جاءت ، ولا يجدى هنا طب الطبيب ولا تفيد رقية الراقي وتأكد لدى صاحبها أنه مفارق الدنيا لا محالة بكل ما فيها ومن فيها إذ إن الحقيقة التي لا نزاع عليها ولا خلاف حولها أن : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ .

وتجد هذا الحذف للمسند إليه من غير أن يسند لنائب فاعل في قول الشاعر :

أَمَاوِيُّ أما يُغْنِي الثَّـرَاءُ عَـنِ الْفَتَـى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فلا ثراء يغني ، ولا ملك يمنع ، ولا جاه يحول إذا حان الحين ، وتصرَّم الأجل ودنت الساعة ، وسيصبح وقتها كل مكان كان يملؤه فارغا ، وستمسي يده من كل شيء كانت تملكه صفرا ، وتلك قصة الحياة والأحياء على وجه الأرض فلا شيء يبقى ، ولا شيء يستمر ، الكل من التراب ، والكل إلى التراب يعود ، ومن غير الغائب أن المسند إليه المحذوف هو الروح أي حشرجت الروح .

على أن مما يكاد يكون مطردا في حذف المسند إليه توجيه المخاطب لنفس الحدث ، وهو يغلب في مشاهد القيامة ، وتراه من الكثرة بحيث يكون كالظاهرة ، ومع تعدد هذه المشاهد عن شيء واحد وهو يوم القيامة ، والحديث عنها ، وما يتصل بها من ضخامة جسام ، وأهوال ومخاطر ونذر دفْعًا إلى الاستعداد لها ، وتنبيها مستمرًّا إلى العمل الصالح الذي يقي من ويلاتها ،

ومغارمها ، وبنيل خيرها وثوابها فلا تجد تكرارا وإنما تجد تنوعا ، وتلونا ، واختلافا ، وكل هذا من إعجاز القرآن الذي يجعلك ترى في كل آية طعما ومذاقا يختلف عن طعم ومذاق الآية الأخرى

قد تجد فيهما شيئا من تشابه لكنه لا تجد تماثلا واقرأ إن شئت قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ (الحاقة:١٣-١٥) حيث تجد الجو جو تهويل ، وترويع ، وتفخيم ، وتضخيم يرفع في النفس الإحساس والشعور بالقدرة الإلهية الكبرى ، وبضعف الإنسان ، وضئولته فهذه النفخة الهائلة القوية الواحدة والدكة العظيمة المحطّمة التي لا تبقي شيئا ، ولا تذر من شيء .

واقرأ النص مرة أخرى وحاول أن تتأمله ، وأن تتملاه تلك النفخة التي تُعْجزُ كل وصف ، وتفوق كل تقدير وحساب إنك تتخيل فيروعك التخييل ويخيفك ، ويأخذ بمجامعك ، إنها دكة هائلة للأرض والجبال بعد أن حملا معا إلى أعلى مكان ، ثم رميا من فوقه ليحطما كل شيء ، فالمشهد هنا إنما يلفت إلى هذا الحدث الهائل المروِّع المرعب ولا يعنيه أن يذكر المسند إليه (فاعله).

وانظر إلى قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم:٤٨) وتخشَّع لهذا السلطان القاهر ، ولهذا الجلال القوي المرهوب ، فالأرض التي تدرج على متنها ، وتدب فوق ظهرها ، وتقتات من نباتها ، وتتفيأ ظلال أشجارها ، وتغدو وتروح فوق ترابها ستتبدل بغيرها في يوم يراه المجرمون بعيدًا ، ويراه أهل الحق قريبا أين تذهب الأرض التي نمشي عليها الآن ؟ وما حال الأرض التي تبدل بها ؟ لا تشغل ذهنك بما لا ثمرة فيه وبما لا يحقق لك فائدة ، وآمن بما يقوله ربك ولا تجادل فيه ، فالمؤمنون بالله هم أولئك الذين يؤمنون بكل ما جاء عن الله من غير طلب للدليل ، ومن غير سعي وراء البرهان ، وهذا معنى الإيمان بالغيب ، وإذا كانت الأرض تبدل بغيرها فإن السماوات كذلك تبدل بغيرها ، إن السماوات التي

تظلنا تبدل كذلك بغيرها في يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا لماذا طوى المسند إليه هنا؟ إنك لابد أن تتوجه بقلبك ، وبمشاعرك ، وبكيانك كله إلى هذا الحدث الجسيم ، وأن تأخذ منه عبرته ، وأن تُعِدّ الزاد له ، وأن تستعد ليوم الرحيل ، فالغاية التركيز على الحدث نفسه لما فيه من جلال ، ولما له من رهبة ، ولما يظهره من قوة وقدرة ، لا تشغل بمن يبدل الأرض غير الأرض ولا بمن يبدل السماوات غير السماوات ، ولكن اشغل نفسك بالحدث ذاته وبجسامته ، ولا تشغل نفسك بمن قام به أو أوْجَده وأنشأه .

واقرأ قول الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ (الزمر:٧١) وقوله سبحانه في نفس السورة : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر:٧٣)

وهكذا تم الحساب ووجه كل فريق إلى المصير الذي يستحقه ، والذي هو أهل له فالذين كفروا إلى جهنم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة . وحذف المسند إليه في كلٍّ لأن المراد ليس تسليط الأضواء على الذي ساق وإنما على من سيق إلى جهنم أو إلى الجنة ، المقصود لفت القلوب والبصائر إلى هذه الأحداث التي تروع وتدهش .

أما من يسوق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، ومن يسوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا فلا تتعلق الآيتان بذكره، إذ المقصود التركيز على الحدث نفسه، وبيان أنه واقع لا محالة ، وهذا ما يجب أن يوليه الناس اهتمامهم وأن ينشغلوا به ، ولا ينشغلوا بشيء سواه .

وهكذا قُضِيَ بين الجميع بالحق ، ووفيت كل نفس ما عملت ، فلا حاجة إلى جدال ولا إلى ثورة أو خصام ، ولا إلى صوت يرتفع باحتجاج وعلى هذا النحو تتم عملية الحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .

فالكافرون إذا وصلوا إلى جهنم استقبلهم خزنتها وذكروهم بما أوصلهم إليها وجاء بهم لها ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فالموقف لابد أن يكون فيه إذعان وتسليم إذ لا مجال للرفض ولا للمكابرة ، وكذلك وجّه الذين اتقوا ربهم إلى الجنة واستقبلتهم الملائكة هناك بالسلام والتحية المباركة ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ .

وهكذا تجد الحذف هنا متلائما مع طبيعة الأحداث ، متوافقا مع ضخامتها معبرا عنها ، مصورا لها ، له وقعه في النفس ، وأثره في لفت الذهن وتجده على هذا النحو من البراعة والتأثير في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤).

فالآية جاءت في أعقاب مشهد دامٍ عنيف كان كرجفة الزلزال يَدُك الأرض ، ويصيبها بالشدائد ، ويغير كل شيء على ظهرها ، لقد ركبت الجماعة المؤمنة من القلة التي آمنت بنوح ـ عليه السلام ـ سفينة النجاة أما الغواة المعاندون الكافرون فقد ركبوا رءوسهم ، وتردّوا في مهاوي العماية والضلالة ، وخبطوا في مجاهل العناد والفساد ، والسماء تصب مياهها ، والأرض تتفجر عيونها ، وماء السماء وماء الأرض يلتقيان على أمر قد قدره الرحمن فيملآن الأرض ، ويعمان الدنيا ، ويبلغان في الارتفاع حدًّا يغطيان معه قمم الجبال ، ولا يعلم مَدَاهُما بعد ذلك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتمضي سفينة المؤمنين وهي تجري وسط موج كالجبال إلى شاطئ السلامة وبر النجاة أما المعاندون بعد أن شاهدوا تيار الماء الجارف ، ولججه الغاضبة تعصف بكل شيء لاذوا برءوس الجبال يعتصمون بها ، ويمنعون أنفسهم من خطرها ولكن الطوفان الهائج نالهم هناك فطواهم في أعماقه ، وابتلعهم ، وأنهى وجودهم ، وطهّر الأرض من

شرورهم وكفرهم ، وهنا تؤمر الأرض بأن تبلع ماءها ، وتؤمر السماء بأن تقلع وأن تتوقف ، فلقد انتهت المهمة ، وقضي الأمر ، وقيل بُعْدًا للقوم الظالمين وترى هذا الأمر على هذا النحو تجيء به الآية محل الاستشهاد ، وهي آية وقف أمامها الإمام عبد القاهر وأطال الوقفة واتخذ منها بداية لحديثه عن النظم ، فكشف عن خصائص الصياغة فيها وما يبعث به نظمها المستوى الذي بلغ الغاية التي ليس وراءها غاية من سحر وفتنة وجمال بعد أن وقف أمام كل جملة يديم النظر فيها ، ويوضح ما تتسم به من خصائص ، وما تفيض به من معانٍ وما تتدفق به من قيم شعورية ثم يبين كيف تتعاون كل جملة ، وتتناصر مع التي تسبقها والتي تليها في تصوير المعنى ويريك الألفاظ من خلال جُمَلِها كيف يخلع السياق عليها من المعاني بحيث لا يمكن أن تقوم بما قامت به إلا من خلال مواقعها في الجمل ، وارتباط الجمل بعضها مع بعض تبعا لأحكام النظم الذي يحقق لها جودة التأليف وحسنه .

وهذه الآية الكريمة التي بدأ بها الإمام عبد القاهر حديثه عن النظم شدت اهتمام الدارسين من البلاغيين إليها فلا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغيين يتصل موضوعه بالنظم إلا زين حديثه بها ، واتخذ منها وساما يتلألأ على صدره .

وشاهدنا هنا حذف المسند إليه في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ من القائل ؟ لم يذكر لشدة ظهوره ، وقوة وضوحه إذ من الذي يصدر هذا الأمر الهائل العظيم المتمكن إلا الله في استعلائه ، واقتداره ، وقوة جبروته فهو الخالق لها ، القائم على أمرها ، المهيمن على كل شيء فيها لذا ناداها في اقتدار وحسم ، ثم أصدر إليها أمره في قوة واستعلاء ، وكما نادى الأرض نادى السماء : ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ أصدر أمره إليها بأن تقلع في سرعة ، وأن تمسك مياهها في لحظة ، على أن المسند إليه قد حذف مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ وانتهى أمره وكأنه ما كان ؛ إذ إن بناء الفعل هنا للمجهول

إشارةُ رامزة إلى السرعة السريعة التي اختفى بها الماء وغيّب به في أعماق الثرى فلم يبق له أثر ، ولا عليه دليل وكأنّ هناك قوةً هائلة قد أذهبت به إلى حيث لا يعلمه أحد ، ولا يدري عنه شيئا .

* * *

ذكر المسند إليه

الذكر للمسند إليه كالحذف تمامًا بتمام ، ذلك أن كل واحد منهما يمثل رافدًا عذبًا من الروافد الكثيرة المتدفقة التي تتهادى في رفق ، ثم تصب في نهر البلاغة الساحر البهيج ، ولئن كنْتَ قد وقفْتَ قبل ذلك مع الحذف وفتحْتَ عينيك له ، وأرسلت نظرك فيه ، وبهرك ما طالعته من ألوانه وصوره ، وهو إنما برع ، وجاد ، ولفت ، وأثار ؛ لأنه جاء في مكانه الصحيح حيث لم يكن من مجيئه بد ما دمنا ننشد الكلام الطيب ، والأداء المحَسَّن ، والبلاغة العالية ، وتراه على هذا النحو مثيرًا جميلا ، حيث يكون من ورائه مرجح يُغلِّب حذفه على ذكره حين يشي الأسلوب به فيوجد في تلافيفه ما يرمز إليه ، ويشير إليه مما يدخل تحت نطاق القرينة الصارفة عن الذكر ، والأمارة الدالة على المحذوف مع اقتضاء المقام له ، وتطلبه إياه حتى لا يلتبس الأمر على السامع الذي يجد من القرائن ما يعينه على معرفة المحذوف ، ويدله عليه في غير خفاء ، ولا لبس ، ولا إبهام .

فإن الذكر كالحذف يشرق في الأسلوب إشراق البشاشة ، ويتلألأ فيه تلألأ الدر ، ويرنُّ فيه رنين النغم حين يأتي قارًّا في موضعه لا يثقل به الكلام ، ولا يترهل به التعبير ، ولا يضيق به المعنى ، ولا يتبلد بسببه الحس ، ولا يتجمد معه الفكر ، ولا يعوق حركة العقل ، أو يحجب توليد الذهن ، ولا يحول دون التأمل وسبحات الخيال ؛ إذ سيكون ساعتها نافذة تتنفس من عبيرها شذو زهور الأدب ، وترينا فنونًا من القول ، وضروبًا من الفن ، وألوانًا من سحر الكلام ، ولكي يصيب الذكر كل هذا ، ويملأ صدورنا بما يروق ويعجب ، فلابد أن يجيء في مكانه الذي لا ينبو به ، أو يضيق بوجوده لاقتضاء المقام إياه ، وإلحاحه في طلبه ، وحينئذ يكون ذكره ضرورة ، إذ لا يستغني الموقف عنه ، ولا يغني شيء عن ذكره أبدًا ، ويؤدي دوره المنوط به في حلاوة الأداء بحيث لا ينهض

بهذا الدور غيره أو يقوم بتأديته سواه ؛ ومن ثَمَّ يُقبل عليه عشاق البلاغة العالية إقبال الظماء على المورد العذب يرتوون من نميره الرقراق ، ويطالعون فيه تناسق الفكر ، وتلاحم النسج ، واتساق الأسلوب .

ومن هنا فليس لقائل أن يقول : إنك في رسمك لحدود الحذف ، وفي محاولة التماسك لأفقه قد حدثتنا حديثًا مستفيضًا شاهدنا من خلاله أن الكلام الذي نطرب لإيقاعه ، ويتداخلنا حديثًا مستفيضًا شاهدنا من خلاله أن الكلام الذي نطرب لإيقاعه ، ويتداخلنا منه الافتتان والعجب ، ونرى فيه ما يروقنا ويخلب حواسنا فنهتف بسحره ، ونتغنى بجماله إنما كان من أثر الحذف فيه ، فما بالك الآن تتحدث عن الذكر هذا الحديث الذي تشركه مع الحذف في حسن جماله ، وتناسق إيقاعه ، وحلاوة رنينه ، وتجعلنا وكأننا سنبصر في الذكر هنا ما وقعت أنظارنا عليه في الحذف هنا مما راعَ حواسنا ، وخلب أفئدتنا ، وحينئذ ستختلط الحدود في عقولنا ، وستتداخل المسائل في رءوسنا وسيمتزج بعضها ببعض امتزاجًا يصعب معه التفريق بينها بحيث لا ندري لمن تكون المزيَّة ؟ وإلى مَنْ في الحقيقة يعود الحسن ؟ أللحذف ؟ أم للذكر ؟ بعد أن جعلتنا نطالع في الذكر ما طالعناه في الحذف من بلاغة عالية ، وبراعة واقتدار .

والحق الذي لا معدى عنه ، ولا خروج عليه أننا نُحِسُّ الجمال في الحذف كما نحسه في الذكر ، فلغة القرآن والوحي يتسع بيانها الذي يتجدّد على الدهر ، ويتطاول على الزمن لهذه النفحات المشْبوبة التي تتوقد بالجمال فتبعث به .

وبلاغتنا العربية أشبه ما تكون بالنهر الخالد تتدافع أمواجه فترمي باللآلئ والجواهر ، وتتجاوب في ساحته أصداء القيم التعبيرية كالفصل ، والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ، والتشبيه والاستعارة ، والتقسيم ، والجناس ، والحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ... إلخ .

وهذه القيم أثبتت خلودها من خلال شحذ الأذواق ، وإرهاف الإحساس ، وتنمية الملكات على اختلاف الحقب والأجيال ، وإنما كان القول البليغ بليغًا

لأنه لا يتصيد أسباب البلاغة نثاراً ، وإنما لأنها التقت فيه التقاء موفَّقًا سعيدًا فأحدثت هذا الحسن الذي راق وخلب ، وتمشى في النفوس طربًا وإعجابًا ؛ ومن ثَمَّ فإنّ التصرف في فنون الكلام ، وإيثار لون على آخر ، وتفضيل الحذف ، واختيار الذكر ، وغير ذلك إنما ينبع من الموقف نفسه ، فالموقف هو الذي يقدّم لونًا في هذا الموطن على آخر ، وقد يجيء موقف آخر يفرض المؤَخَّر في الموقف السابق فيقدّمه ، ويؤثره في الكلام على غيره وفي هذا وذلك تكمن البلاغة ، ويبلغ الحسن في الكلام إلى غاية ليس من ورائها غاية ، فالكلام أحوال ، وفي مراعاة هذه الأحوال بالإتيان بالكلام وَفْقَ مقتضياتها والتصرف في الأساليب على أساسها وإيثار لون على آخر ؛ لأن المجال مجاله تتحقق البلاغة التي تثير الإعجاب في النفس ، وتشيع اللذة في الشعور وعلى هذا نفهم أن للحذف أحوالا ومقامات لا يغني عنه الذكر فيها شيئًا ـ كما أن للذكر أحوالاً ومقامات لا يمكن أن ينهض فيها غيره ، ولا أن يقوم بها سواه وأن كلا منهما حينما يأتي في مكانه الذي يقتضيه السياق البلاغي يسحر اللب ، ويملك القلب ، ويبعث بالرواء الممتع البهيج ، إذ إن مراعاة ما يقتضيه المقام مطلب أساسي لصحة الأسلوب ، وسلامة التعبير ، ووضوح الفكرة ، وبلوغ الغاية ولذا لا يرد ولا يصح أن يقال : إن البلاغة الإيجاز ، والإيجاز في الحذف ، وليس في الذكر والإطناب ؛ لأن كلا منهما في مكانه بليغ فصيح .

على أن هناك ما يجب أن نتنبه له ، وأن نفتح عيوننا عليه ، وأن نراه في لونه الصحيح ، وهو أن الذكر لا يعاكس الإيجاز ، ولا ينافيه إلا مع النظرة العجلى التي لا تتريث ، ولا تفحص ، ولا تدرس ، ومن الذائع الذي شاع حتى أصبح معروفًا غير مجهول ما ردَّ به يحيى بن خالد البرمكي على اثنين كتبا كتابًا في معنًى واحد أحدهما أوجز واختصر والثاني تدفَّق وأفاض ، فقال للمختصر بعد أن قرأ كتابة ما أرى موضع مزيدٍ ، وقال للمُسْهِب المطيل : ما أرى موضع نقصان[1] .

---

(١) الصناعتين ص ١٩٦ .

ومعنى هذا الكلام أن الاثنين معًا المختصر والمطيل قد أديا ما يتردد في صدريهما من معان بالأسلوب الأمثل والأحسن في هذا المقام ، وأنهما معًا في مستوى واحد من الإجادة والتَّبْرِيز ، وأنهما بلغا الغاية التي ليس من بعدها غاية في البلاغة والتَّجْويد والإتقان ؛ ذلك أن المختصر لم يُخِل ، وأن المُسْهب لم يُفض بما لا فائدة فيه ، وحينئذ تكون الزيادة والنقصان من أغراض الكلام ، ومن دواعي الموقف ، وحين يأتيان على هذا النحو يكونان من البلاغة العالية في الفؤاد وفي القلب وفي الصميم على أن هناك شيئًا من وراء ذلك يشي به الذكر ويلوح من آفاقه هو أنه لا يأتي فضلةً يمكن الاستغناء عنها ، والتضحية بها ، وإيثار الحذف عليها ، والتَّحَرُّر من عبئها وزيادتها وما تصيب به الأسلوب من الترهل ، وفقده للخفة والرشاقة بل يكون وراء الذكر من الهواتف النفسية ، والدواعي القلبية ، والخطرات الشعورية ما يجعل المتكلم لا يطرحه ، ويسقطه ، وإنما يحرص عليه ، ويسجله ، ويحتفظ به ، ويضعه في مكانه الصحيح من جملة التعبير مهما أمكن أن يدل عليه المقام ؛ لأن المتحدث يختار بين أحسن البدائل التي تحقق مزية لكلامه والذكر في مثل هذا يحقق قيمة معنوية في التعابير لا يمكن أن تكون من غير حضوره ووجوده وعندئذ يكون من مقتضيات الموقف في السياق البلاغي ولو فرض وأن الأسلوب قد تحرَّر منه ، واستغنى عنه لكان الخلل ناشئًا من طرح هذه القيمة ، وعدم الالتفات إليها مما يؤثر بالسلب على المطابقة النفسية والشعورية ، وهما من هما في تجويد العمل وربطه بمنشئه ، وصياغته لنفسه ، وحكايته لها ، وترجمته لعواطفه الجياشة ، ولم يقل أحد بأن الأسلوب حين يأتي مقطوع الصلة بهذه النواحي كلها في قلب المنشئ يكون من الجيد الراقي الذي يخلب اللب، ويروع الحس.

فالذكر الذي يرفضه الكلام البليغ ، ولا يحفل به ، ولا يحتشد له هو ذلك النوع ، الذي لا يكون وسيلة من وسائل تنعيم النفس ، وتحقيق الإثارة لها واللذة ، وذلك بتوسيع ما لا حاجة إلى توسيعه ، وحينئذ لا يكون دقيقًا في

الصياغة ، ولا بارعًا في الأداء ؛ إذ يتمطَّطُ به الأسلوب ويَتمَدَّدُ ويتورم ويطول ويسترخي بحيث يفيض على المعنى ويزيد في غير حاجة ، ولا فائدة ، ولك أن تتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء:١٠٥) لترى تلاحم النسج ، وإحكام السبك ، وإصابة المعنى ، والتحليق فوق الآفاق قلِّب النظر ، وأدر الخاطر في هذا النص مرة أخرى ، لتقع عينك منه على ما يسر ويبهج إذ تجد فيه كلمة (الحق) قد تكررت كما لا يغيب عن فطنتك أن ذلك حاصل في قوله تعالى : (أنزلناه ونزل) ومع ذلك فإنك ترى التركيز كله وهو ينصب في هذا الأسلوب ، وترى العمق كل العمق وهو يجول فيه فإذا كان الظاهر قد وضع موضع الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ إذ كان مقتضى ما يفهم من الظاهر أن يضمر بعد أن صرح ، فيقول ـ في غير القرآن ـ (وبالحق أنزلناه وبه نزل) ، لكنه لو كان كذلك لما أفسح مجالا لأن يُتنعَّم بذكر لفظ «الحق» ، ولا لأن يُتَلذَّذَ به ، وبذلك يفقد الكلام غرضًا أصيلا من بين أغراضه ، وهو تنعيم الذوق ، وتحقيق المتعة للنفس ، والبهجة للفؤاد ، وهي كلها مما يقصد إليه الكلام البليغ قصدًا ، بل إن ذلك من أقوى مظاهره ، وأجلِّ غاياته هذا على أن مغايرته سبحانه بين وصفي الحق مرة بالإنزال ومرة بالنزول إشارة ظاهرة إلى تغايرهما فمتعلقهما وهو «الإنزال والنزول» متغايران ، وعليه فلا يكون الثاني تأكيدا للأول فيمتنع العطف ؛ لأن العطف هنا عطف بين «جملتين» لا بين «متعلقين» .

والحق هنا هو الذي يضاد الباطل ويقابله والمراد ـ والله أعلم ـ نفي اعتراء البطلان في أول الأمر وفي آخره إذ المقصود وعلم الله فوق كل شيء وما أنزلناه من السماء إلا محفوظًا بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا من تخليط الشياطين أو فما أنزل القرآن إلا متلبسًا بالحق المقتضي لإنزاله ، وما نزل إلا متلبسًا بالحق الذي اشتمل عليه وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالحق نزل لا بشيء آخر سواه[1] .

---

(١) انظر حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٦٧/٦ .

والذي نريد أن ننبه إليه ، ونركز عليه من خلال هذا العرض أن ذكر ما يبدو أن السياق يجوِّز حذفه حين يكون غرضًا من أغراض الكلام ، وهدفًا من أهدافه كتثبيت المعنى ، وتقريره في النفس وتوثيقه لديها ، وتمكنه منها ، وإفادته لمعانٍ لا تستفاد إلا إذا ذكر يكون مطلبًا ضروريًا لصحة الكلام ، ولحسنه ، وبلاغته ، لأنه حينئذ يدخل تحت نطاق ما يسمى بمقتضى الحال ، والمطابقة لهذا المقتضى هي البلاغة لا غير ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن النظام اللغوي لجملة الإسناد يقتضي ذكر طرفيه ، لأن الذكر هو الأصل ، وأن إسقاط أحد الطرفين إنما يأتي عند التطبيق العملي من خلال الكلام ، وأن هذا الإسقاط إنما يعتمد اعتمادًا أصيلا وقويًا على دلالة القرائن الحالية واللفظية تأكد لدينا أن الذكر هو الأصل ، إذ إنه يحقق قيمة معنوية في الأسلوب تُخل بمبدأ المطابقة لو فاتت وضاعت .

ونخلص إلى أن المسند إليه واجب الذكر ما لم تقم قرينة من لفظ أو حال إذ لا يفهم أمره إلا بها فإذا دلت عليه قرينة جاز ذكره وحذفه وإنما نتحدث الآن في مرجحات الذكر على الحذف وذلك إنما يكون حيث يجوز الأمران الذكر والحذف ومرجحات الذكر كثيرة منها :

الرغبة في زيادة التقرير[1]، والإيضاح والتمكين والتوثيق وذلك إنما يكون في تقديم ألوان المعاني التي تختلط بالنفس ، وتتدفق في الشعور وتمتزج بالدم ، وتتصل بالروح ، وتملأ وجود الإنسان ، وتعم كيانه كله هذه المعاني على هذا النحو تمس العواطف مسًا قويًا ، وتهزها هزًا عنيفًا إذ يكون بينهما وبين العاطفة وشائج من نسب ، وصلة من رحم ، وقرابة من دم ومن ثَمَّ يكون الحرص الشديد ، على ترديدها ، وعلى التغني بها ، والترجيح لها ، وإشاعتها في كل نفس ، وذلك من خلال أحاديث المنشئ الذي يرسلها ، ويتدفق بيانه بها ؛ وكأنه يحاول أن يحييها على تطاول الأجيال ، ويبقيها على مر القرون فلا تذبل

(١) خصائص التراكيب صـ١٣٦ .

ولا تجف ، ولا تنطفئ أو تموت ، وإنما تستمر متألقة النجم ، عالية الصدح قوية الرنين ، لا تغيض ، ولا تغيب ؛ ومن ثَمَّ فإنه يبدئ فيها ويعيد .

خذ قول الشاعر الذي يخاطب صاحبته ، وقد كانت المرأة وما زالت مثيرًا قويًا يلهب شعور الشعراء ، ويحرك عواطفهم ، ويبعث بالدفء في صدورهم ، ويبعد عنهم الجفاء ، والجفاف والسآمة ، فتسمو أذواقهم ، وتنتقي كلماتهم ، ويدق إحساسهم فيحلقون في سماء الإلهام ويهتفون بعذب النغم ، الذي يصبي المشاعر ، ويسبي العقول ، ويبدد ظلام الكآبة ، ويشعل نار الحب .

أُصفيك أقصى الوُدّ غير مقلّلٍ إن كان أقصى الوُد عندك ينفعُ

وأنت ترى الشاعر هنا قد أظهر حيث كان المقام في الظاهر للإضمار في قوله : (إن كان أقصى الود) وما كان منه ذلك إلا لأن إحساسًا قويًا بهذه المعاني يتغلغل في أطواء نفسه ، ويمتلك كل مشاعره ، ويستبد بكيانه ، ويدفعه دفعًا إلى الترديد والتنغيم والترجيع ؛ إذ ليس له على غير هذا قدرة ، ولا على خلافه سلطان ومن ثَمَّ كرر وأشاع ، وردد وأذاع ، ورجع وأعلن .

ومما يتصل بالنفس ويمتزج بالعاطفة ، ويختلط بالدم ما تراه في قول مالك ابن الريب ، وهو يستشعر دنو الأجل بعد أن زحفت عليه الشيخوخة ، وهاجمته وأنحلت جسده ، وأضعفت قوته ، فأدرك أن بدره قد آذن بالأفول ، وأن شمسه قد جنحت نحو المغيب ، وأن عمره قد تولى بعد أن ذهب الصبا ، وانطفأ ما كان في حيويته من توهج ، وإشراق ، ومما زاد من قوة المعاناة أن الشاعر كان بعيدًا عن موطن ذكرياته ، ومرتع طفولته وصباه ، فتقاسمه همان ، وتعاونت عليه غربتان ؛ الغربة الجسدية بعد أن تمشى الوهن في مفاصلة وسرى في جسده وعظامه ، والغربة النفسية التي أشاعت الحنين في نفسه ، والفزع في صدره ، وفؤاده خوفًا من أن تواتيه المنية بعيدًا عن مرح طفولته ، ومسرح شبابه ، لذا هتف بأبياته تلك التي كانت زفرات تنفس بها في ألم وجيع ، وفي أسى عميق فأرمضت الأحشاء ، وأذابت الجوانح ، وبعثت في كل عين دمعة ، وفي كل قلب

خفقة، وأرتك الشاعر وهو يُرجِّع على قيثارة شعره الحنين الذي يثور في فؤاده، والرغبة في العودة التي تشتعل في صدره، والإحساس الجارف بالشوق واللهفة، والرغبة إلى ديار الأهل، وشجر الغضا الذي يرتبط بنفس الشاعر أشد ارتباط وأوثقه والذي يمور في أعماق القلب أعنف الموران وأقواه، والذي لا يملك أمام استبداده، وتعلقه بنفسه إلا أن يرجِّع فيه وأن يردِّد وأن يعيد وأن يبدئ فيقول :

ألا ليتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً ... بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليتَ الغَضَا لم يقطَعِ الركبُ عَرَضَهُ ... وليت الغضا ماشي الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا ... مزار ولكن الغضا ليس دانيا

ولا تملك إلا أن تحزن لحزن الشاعر الذي يعبر بهذا الأسى الذي يشيع في كلماته عن حنينه الجائش إلى ديار الأهل، وإلى شجر الغضا الذي يود من أعماقه أن يبيت إلى جواره ليلة يروي ظمأه، ويطفئ شوقه كم يتمنى أن يبيت إلى جواره يزجي القلاص النواجيا ولكن أنَّى وكيف؟ والمسافة طويلة، والديار بعيدة والجسد وهنان ضعيف، إنه حنين في مثل عمق البحر، وسعة المحيط، لذا ترى الشاعر يقبض على اللفظ، ويمسك به ويتشبث بكل شيء فيه حتى لا يفلت أو يضيع فيذكره مرة بل مرات، ويردده وذلك يسبب إحساسه بمعناه ورغبته في توصيل هذا الإحساس موثقًا لدى السامع كما هو مؤكد عند الشاعر .

ومن هذا الباب ما تراه في قول الشاعر :

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أحسنَ المنى ... وإلاَّ فقد عِشْنا بها زمنًا رَغْدًا

أمانيُّ من ليلى حسان كأنما ... سقتك بها ليلى على ظمأٍ بردًا

ومثله ما تراه في قول قيس :

ألا ليتَ لُبْنَى لم تكن لي خلة ... ولم تلقني لُبني ولم أدرِ ماهيا [1]

---

(١) انظر خصائص التراكيب صـ١٥٠ للدكتور محمد محمد أبو موسى .

وليس بخافٍ أن السرّ البلاغي وراء الذكر هنا هذا الهيام الموّار والحب اللهيف ، والهوى المبرح ، ولِمَا تردد هنا من أسماء وللتعلق الذي لا أمل في الفكاك منه بليلى ولبنى والشعراء يرون في ذكر أسماء من تعلقت بهن قلوبهم متعة تتقاصر عنها كل اللذائذ والمغريات ؛ لذا تراهم يهيمون بها ، ويسرحون في مجاليها وتتدفق على ألسنتهم نغمًا مطرابًا مُرِنًّا ، ولحنًا فاتنًا ساحرًا ، وحديثًا عذبًا آسرًا ، بل إنهم ليفتنون ويسحرون بالمكان الموحش القفر وبالوادي الجديب ويتخذون منه سبيلا للحديث عمن يحبون يقول ذو الرمة :

أُحبُّ المكانَ القفْرَ من أجلِ أنَّني به أتغنَّى باسمها غيرَ مُعْجِمِ

فهو يتغنى بالمكان الذي يحبه من أجل الحديث عنها ، والاستمتاع بحبها بعيدًا عن لوم العزال إذ إن في ذكره للمكان ذكرًا لها وفي ترجيعه له ترجيعًا لها من غير أن يبوح وأن يصرح .

بل إنهم يتخطون الأسماء وحبها إلى ما شابهها وقاربها وتلك درجة في الحب لا يصل إليها شيء سواها وفي ذلك يقول قيس :

أُحبُّ من الأسماءِ ما وافق اسمَها وأشْبَهَهُ أو كان منه مُدانيا

وناهيك بحب يتخطى الأصل ويتجاوزه حتى إنه ليحب من أجله وبسببه المشابه والمضارع والمقارب .

ومن هنا من هذا الوادي ما تراه من الإلحاح على التكرير في مواقف الصبوة والشوق والمعاناة وفي مواطن اللوعة والوله والغرام فهو يشيع فيه نفسه ، ويقلّب به لسانه ، ويصبح ذكر اسم الصاحبة والحبيبة بمثابة الحافز القوي والمثير الذي يحرك في النفس أشواقها ، وحنانها ، وصبوتها ، ويدفعها في قوة لأن تتغنى بما تتغنى به ، وأن تطيل في الترديد والتنغيم ، والترجيع ، وكأن الشاعر بذلك يدعو غيره إلى أن يطارحه هواه ، ويشاركه وجده وأساه ، وانظر إلى قول النابغة في موقف أخذَهُ فيه الهوى ، وألحّت عليه الصبابة فراح يتنفس بهذا الشعر الذي كأنه قطعة من ذوْب نفسه ، وعصارة وجدانه :

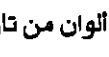

عُوجُو فحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدّارِ ... ماذا تُحَيّوْن مِنْ نُؤْيٍ وأحْجَارِ ؟
أقْوَى وأقْفَرَ من نعم وغيّره ... هُوْج الرياح بِهَابِي التّرب مَوّارِ
وقَفْت فيها سَرَاة اليوم أسْألُها ... عن آل نعم آمونًا عَبْر أسْفَارِ
وقد أكون ونعمى لاهِيين بها ... والدّهْر والعَيْش لم يَهْمُمْ بإمرار
أيام تخبرني نُعْم وأخبرُها ... ما أكْتُم الناسَ من حَاجِي وأسْرَارِي
فاسْتَعْجَمَت دار نُعْمٍ ما تكلّمنا ... والدّار لو كَلّمتْنَا ذات أخْبَارِ

ومع أن التكرار قد يكون مدعاة للسقوط والسماجة إلا أنه هنا في أبيات النابغة قد أشاع الرضى في النفس ، والاطمئنان في الصدر ، والبهجة في الفؤاد ، وكان نغمًا رائعًا من أنغام الحسن الوضيء تُرى لماذا نجد أنفسنا مع مثل هذا التكرار للاسم في نشوة غامرة ، وفي هوى يتلعب بالألباب وبالقلوب؟ هل لأن الشاعر حين يهتف بذلك يعالج ما يجده في نفسه من هوى وصبابة وليس أمامه من سبيل إلا أن يفزع إلى الاسم الذي لحقه من الوله بصاحبته ما جعله يدندن به ، ويحرك لسانه بحروفه حرفًا حرفًا وهو في ذلك ينادي علينا من مكان قريب ، ويعبر عما نجد في نفوسنا فما يحسه الشاعر نحسه نحن ، وما يعانيه نعانيه ، وما يكابده من الشوق نكابد مثله وما يوجد في قلبه من حنين لا يضارعه حنين يوجد مثله في قلوبنا وبين أطواء نفوسنا ؟

ومن هذا الباب ما تجده من التكرار في باب الرثاء وذكر المرثي كما في رثاء الخنساء التي بكت أخاها صخرًا أحرَّ البكاء ، وبقي ولهها عليه لا يبلي ولا يخلق ، وسكبت عليه بسبب الحزن أنهارًا من الدموع وكانت أشعارها فيه مبعث الأسى والشجن ، ومثارًا للوعة والحزن وكانت عاطفتها في الرثاء مهتاجة صادقة أشعرتك من خلالها ما تعانيه من ضربة الدهر التي أدمتها ، ومن طعنته القاتلة التي أصابتها في سويدائها ، ومن ثَمَّ بعثت بالدمع في كل العيون ، وأشعلت اللوعة في كل الصدور على نحو ما هو جهير ذائع معروف ، واقرأ

قولها في أخيها الذي قرَّح أجفانها وأنضج كبدها ، وأرمض أحشاءها ، وأذاب لفائف قلبها حتى أعاد فقده النعيم شقاء ، والوجود الجميل قبيحا .

وإنّ صخرًا لكافينا وسيدنا ... وإنّ صخرًا إذا نشتو لنحّارُ[1]

وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنّه علمٌ في رأسه نارُ

وقبل هذين البيتين قولها :

وما عجولٌ لدى بوٍّ تَحِنُّ لَهُ ... لها حنينان : إعلانٌ وإسْرار

ترْتع ما غفلت حتى إذا ادّكرت ... فإنما هي إقبال وإدبارُ

يَوْما بأوجع مني يوم فارقني ... والعيش عيشان إحلاء وإمرار

لترى أنها كانت تصب في هذا الاسم كل إحساس لها بالأسى ، وتعبئ فيه كل شعور لها بالمعاناة والالتياع وبفداحة الرزء ، وشدة المصاب ولذا ظلت تنوح وتولول ليقينها بامتناع الصبر عليه ، وعدم العوض عنه ، وعجز القدرة على تحمل فقده وغيابه .

وهكذا نرى التكرار يتبدى لنا ويلوح من خلال آفاق المواقف التي يتصل موضوعها بالنفس ، ويرتبط بالوجدان ، ويتعلق بالخواطر بحيث يكون من الصعب التفلت والفكاك والهروب ، ومن ثَمَّ يصبح التكرير حينئذ بمثابة المؤسى الذي يدغدغ المشاعر ويهدهد من شدة النفس المتهالكة المتوترة .

وتأمل قول متمم بن نويرة اليربوعي في رثاء أخيه مالك[2]

لَقَدْ لامَني عند القُبُور عَلى البُكا ... رفيقي لتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ

وقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثَوى بَيْن اللّوى فالدَّكادِكِ

---

(١) انظر في هذا الموضوع خصائص التراكيب ص ١٣٨ .

والكامل في اللغة والأدب ٢/٢٨٠ لأبي العباس محمد بن بريد المعروف بالمبرد .

(٢) الحماسة من اختيار أبي تمام بن أوس الطائي ١/٣٢٠ ، ٣٢١ .

فَقُلْتُ لهُ إن الشجا يَبْعَثُ الشجا ‏ فَدَعْني فهذا كله قبر مالك

فهو يبكي كل قبر ؛ لأنه يرى فيه قبر أخيه مالك لذا فهو يقيم عليه مناحة لا ينقطع العويل فيها وينشئ عليه في كل مكانٍ فيه جَدَثٌ مأتمًا لا ينتهي الحزن فيه بعد أن تصدع قلبه ، وتساقطت نفسه ، وتضعضع عزمه ، وانفطر فؤاده ، وخارت قواه ، ومن ثَمَّ تجري كلمة القبر على لسانه مردَّدَة مكرّرة وكأنه يبعث فيها أحزان نفسه ، ويرسل فيها دمع عينه ، ويشيع فيها ألوانًا من الأسى والالتياع ، وأشكالا من الرحمة والحب والرقة والحنان ، وصورا تترجم أشجان الفؤاد الكسير ، وترقق حواشي النفس الجافية .

ومن دواعي الذكر عدم التعويل على القرينة ، والاطمئنان إليها والثقة فيها وذلك بسبب فتورها وضعفها ، أو خفائها وانمحائها ، أو التردد والاشتباه فيها . وتستطيع بيسير من المعالجة أن تأخذ لكل حالة ما هو أليق بها ، وأدل عليها من الشاهد والمثال فلو أن المسند إليه قد ذكر أثناء حديث ثم مضت مدة طال معها عهد السامع به فلابد من إعادة ذكره مرة ثانية ، لأن تشقق الحديث ، وطوله ، وامتداده يكون كل ذلك مظنة لاحتمال غفلة السامع عنه ، أو نسيانه له لطول المسافة وبعدها وهذا هو معنى قلة الثقة بالقرينة لضعفها .

وأيضًا فلو أن المسند إليه قد جرى ذكره في حديث ثم حول مجراه إلى حديث آخر فلابد من الذكر ثانيًا حتى لا يشتبه الأمر على السامع ولا يختلط عليه المحدَّث عنه أهو الأول أم الثاني ؟ وهذا معنى ضعف التعويل على القرينة مثال ذلك قولك : شوقي نعم الشاعر فأنت تذكر المسند إليه إذا سبق لك ذكر شوقي في حديث سابق . في الحالة الأولى أو ذكر معه حديث تناول غيره من الشعراء واشتبه الأمر على السامع في الحالة الثانية .

ويذكر المسند إليه للرغبة في بسط الكلام[1] وتلوينه بغية في إطالة الحديث ، لأن الموقف الذي استدعى الكلام مرغوب محبوب إذ يجد فيه لذة تتضاءل أمامها كل لذة ، ويرى فيه نعيمًا دونه كل نعيم ، ويلمس فيه سكونًا لنفسه ، ورضى لقلبه ، وراحة لتعبه .

خذ قول الله تعالى سائلاً موسى على نبينا وعليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه:١٧،١٨) .

وظاهر أن سيدنا موسى عليه السلام كان يريد أن يعتصر كل ما في الموقف من لذائذ لِذا أطال في الجواب ، ليتنعم بجلال اللحظة ، فالمسند إليه قد ذكر رغبة في امتداد الحديث إذ كان يكفي أن يقول في الجواب «عصا» لأن ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ إنما يسأل بها عن الجنس لا عن غيره لكن موسى عليه السلام في حضرة الذات العلية ، وفي قدس الأقداس وهو يريد أن يتزوّد من قوى الحق ، ويتبرأ من أوزار الحياة ، ويوقظ رواقد الخير في نفسه إن موسى عليه السلام في مقام يحلو فيه طول الوقوف ، ذلك أن الأشواق هنا تعلو وتتصعَّد ، والرغبة في الاستمداد والاستمتاع رغبة ملحة وعنيفة وليس كـ موسى عليه السلام أحد يحرص على إدامة هذا الموقف واستمراره ؛ لذا أطنب في الكلام وأطال ، ووسّع ولوّن حتى يأخذ بأكبر حظ من لذائذ الموقف وشرفه ، ومن طيبات المقام ومن ثَمَّ تراه تجاوز ذكر المسند إليه ، ولم يكتف به بل أفاض في ذكر أوصاف لم يسأل عنها ، ولم يطالب بها فقال كما حكى القرآن العظيم : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه:١٨).

وقد يذكر المسند إليه بلفظه الخاص به بعد أن ذكر مرة في العام إظهارًا لماله من مكانة وتبيينا لما له من فضل ، وحثًّا على العناية به والاهتمام

---

(١) المطول صـ ٩٦ .

برعايته ، والتطلف معه واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف:١٥) وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان:١٤) وليس مما يخفي أو يغيب أن الوصية بالوالدين وصية بالأم والأب معًا ، ثم إن في إعادة الذكر للفظ الأم وهو داخل قبل ذلك في الوصية بالوالدين تنبيها على فضل الأم وحثًا على العطف عليها ، والحدب بها ، والرعاية لها والاهتمام بشئونها - إذ هي التي عانت آلام الحمل ، وقاست عذابه وهي فَرِحةٌ بذلك سعيدة وهي التي تحملت آلام المخاض قريرة العين ، هانئة النفس ، راضية الخاطر ، وهي التي أعطت عصارة ما فيها من عطف ، ورحمة ، وهي تشعر بأسعد السعادة وتحس بأجمل الجمال ترى ابنها فلذة كبدها ما غاب عنها إلا شعرت بنقص أحسن وأغلى ما في نفسها إذ هو قطعة من فؤادها فصلت عنها يمرض فتتقرح أجفانها عليه وتنضج كبدها بسببه ، تسمع صوته فيشيع الطرب في نفسها ، واللذة في فؤادها ، تسهر لينام ، وتشقى ليسعد ، وتتعب ليستريح هذه هي الأم ومن أجل ذلك خصها الله بمزيد من الفضل ، ووصى الأبناء بزيادة البر بها ، ومضاعفة التكريم لها كفاء ما قدمت وجاء الإشعار بذلك في جملة قرآنية خاصة بالأم مستقلة بها لا يشركه فيها غيرها ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ و ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ وإذا كانت الوصية قد جاءت بالوالدين عمومًا ثم أفردت الأم مرة أخرى فإن الغرض من ذلك العناية بالوالدين ، والرعاية لهما ، والعطف عليهما وبخاصة الأم التي عانت أبلغ المعاناة ، وجاهدت أعظم المجاهدة .

ومما جاء على هذا النحو الذي ذكر فيه الخاص بعد العام ما تجده في قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:٤٩) فأنت ترى أن الملائكة داخلة في عموم ما في السماوات وما في الأرض فإذا كان ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله سجودًا متجددًا موصولاً فإن الملائكة من بين الساجدين ، ومع ذلك ذكرها بلفظها الخاص بها الذي لا يشاركها فيه غيرها تجلة لها ، وتعظيمًا لأمرها ، ورفعًا لشأنها ، إذ هي من بين خلق الله لا قدرة لها إلا على الطاعة فلا تعصي الله فيما أمرها ، وإنما تفعل ما تؤمر به في طواعية ، ولين ، واستجابة ، لذا كانت في مجال من يقتدي به ، ويتأسى إذ لها جلالة تغشى العيون ، وقداسة تملأ الصدور ، ومكانة في القلوب ، ومهابة في النفوس ، لأنها ملائكة الله ، والهادية إلى المحجة ، والراكعة الساجدة المُسبحة الحامدة ، فإذا رأيت الله قد خص ملائكته بمزيد من اهتمام ، وبفضل عناية فعطفها بلفظها الخاص به على العام الذي سبقها فاعلم أن من وراء ذلك هذا السبب ولك أن تتأكد من صدق ما أقول لك حين تقلب نظرك فيما تلي الآية السابقة من قوله تعالى في بيان فضل الملائكة واستجابتها لأمر الله في قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

ومن هذا الوادي ما نراه في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر:١-٣) .

وحين تطيل النظر تجد الحديث عن النصر هنا عامًّا شاملاً إذ هو يشير إلى كل نصر وقع في حياة الحبيب ﷺ فغير وجه الأرض ، وحرر موازين العدل ، بعز الاستشهاد ، وجلال التضحية ثم خص فتح مكة بلفظ خاص إشارة لعلو قدره ، ورفعة منزلته ، إذ به عز الإسلام ، وانفرجت خوانق الأغلال ، وانجلت غواشي الظلم ، وانقشع ظلام الذل ، وائتلفت القلوب الشتيتة ، وعاد المطرودون المهاجرون المستَخْفُون بدينهم يبعثون أمجاد الدين ، ويحملون راية الإسلام ، ويستأنفون بلاءهم في جهاد النفس والناس ، ويستعيدون مكة أم القرى وبيت

الله الحرام ، مكة التي تركها الحبيب ﷺ تركها رغمًا عنه والذي التفت إليها في حب عارم وفي شوق لاهف وخاطبها ودموعه تسبق كلماته بقوله المؤثر الخالد : «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى نفسي ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت» فإذا رأيت فتح مكة قد ذكر مرة مع العام ثم ذكر بعد ذلك بلفظه الخاص فاعلم أن من وراء ذلك كله المعاني التي ذكرتها لك وتجد ذلك في كل خاص يذكر بعد عام دخل فيه سبب دعى إلى ذلك ، وخصوصية جعلته يذكر مرتين ، مرة مع العموم ، ومرة أخرى منفردًا لا يشاركه أحد سواه .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ (القدر:١-٥) . وتأمل عطف الروح جبريل عليه السلام على الملائكة مع أنه من جملتها ، وداخل فيها ، بل هو منها في القلب وفي الصميم ولو حاولت أن تلتمس علة للذكر منفردًا بعد الدخول مع الجميع لتراءى لك من وراء ذلك ما يسوغ هذا الذكر ، ويمنح تلك الخصوصية إذ هو الروح الأمين على الوحي والحامل للقرآن والموصل إياه للرسول والسفير بين الله والرسل ، والواصل بين السماء والأرض والجامع بينهما في مكان . وإذا كان في عطف الخاص على العام ما يشي بهذا كله ويعبر عن تلك المعاني كلها في غير تهويل ولا تكبير ، تجد هذا أيضًا في ذكر العام بعد الخاص على نحو ما تجده في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ:٣٨) وفي قوله سبحانه مخاطبًا زوجتين من زوجات الرسول ﷺ ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم:٤) إذ إن إبانة ذكر العام بعد الخاص على فضل هذا الخاص ، وعن علو قدره ، ورفعة منزلته أوضح من أن يدل عليها ببيان . وتجد هذا أي ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول مع الاهتمام

الزائد بأمر الخاص في هذه الدعوة الضارعة المتخشعة يدعو بها خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما سجل القرآن على لسانه : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤١) فقد ذكر الحق سبحانه المؤمنين والمؤمنات ، وهما لفظان عامان يدخل في عمومهما من ذكر قبل ذلك .

ومن دواعي ذكر المسند إليه التعريض بغباوة السامع ، وعدم ذكائه ، وقلة فهمه ، وسوء إدراكه إشارة واضحة إلى أنه لا يفهم إلا بالتصريح ، لقصد إفادة أن الغباوة وصف له ، وصفة لاحقة به ، إهانة لشخصه ، وتشهيرًا بغبائه ، وازدراء بمكانته ، وتقليلاً من شأنه كما تقول لسامع القرآن غير محتفل به ، ولا عابئ بكلماته : القرآن شفاء لما في الصدور . وتجد هذا واضحًا في أبيات الفرزدق التي عرض فيها بغباء هشام بن عبد الملك ، حين غاظه ما رآه من اجتماع الناس حول زين العابدين بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهم ، والتفافهم حوله ، واحتشادهم له ، وإفساحهم له مكانًا واضحًا ليطوف ويتسلم الحجر في فرحة غامرة ، وفي أنس باهر ، وحين سُئِل هشام من أتباعه من هذا الذي يلتف حوله الناس هذا الالتفاف ، ويهتمون به هذا الاهتمام الذي يفوق الحد ويعجز الوصف؟ خشي أن يجيب بالصراحة ويبين أنه على زين العابدين فيزداد احتفال الناس به فأنكر معرفته وقال : لا أدري وكان الفرزدق شاهدًا المشهد فأنشأ أبياته الذائعة الجهيرة :

هذا الذي تعرف البطحاءُ وَطْأَتَه ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خير عبادِ الله كلِّهم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا ؟ بضائره ... العُرْب تعرف من أنكرت والعَجَمُ

فمع كل ذكر للمسند إليه هنا لطمة على وجه هشام ، وتقريع له وتأنيب وتعريض بغبائه ، واتهام له بعدم الذكاء ، إذ كيف يجهل عليًا وهو لا يجهل ،

وينكره وهو من الذيوع ، والجهارة ، والنباهة ، وعلو الشأن ، وكرم المحتد ، وعراقة الجذور والأصلاب بحيث يملأ سمع الزمان وعينه وضميره وكل شيء فيه وبحيث لا يخفى على أحد يعرفه كل الناس الذين تخفق قلوبهم بالحب له عن إخلاص ، وتجأر ألسنتهم له بالدعاء عن عقيدة وكلهم يتسابق إلى الاحتفاء به ، والاحتفال ، وإفساح المكان عن طواعية ، وفرحة ، وحب ، وانظر إلى الذكر في قوله : هذا الذي تعرف البطحاء وطأته وما تراه من جمال يغمرك من جميع جوانبك ويشغل خيالك بهذا الإنسان العظيم الذي حلق في كل أفق ، وطار في كل سماء وسار في كل أرض ، وذاع اسمه في كل مكان ، وعرفته الفيافي والبطاح والسهول ، والوديان ، والنجاد ، والوهاد بل إن البطحاء لتميز مشيته وتعرف وطأته إذ لا تشتبه بغيرها ، ولا تلتبس بسواها . وإذا كانت الدنيا تعرفه على هذا الحد والبطاح تميز دبيبه وتعرف سيره ، فلا يمكن أن يجهله أو تغيب معرفته عنه إلا عن أحمق غبي بعد أن عُرف عند كل شيء حتى عند الحل والحرم .

ثم انظر إلى الذكر في قوله : هذا ابن خير عباد الله كلهم ، وما يشير إليه من أنه ليس كسائر الناس في عظمته ؛ لأن العظمة أصل في تكوينه وفطرة في خلقه فكيف يجهله إلا مأفون جاهل ؟ وفي ذلك لمز لهشام بأنه فوقه وخير منه وانظر إلى الذكر في قوله : هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... إلخ البيت وما ترى معه من نبرة الاستخفاف بعقل هشام وذلك حين يبين أن المُحتَفى به عليًّا ابن الحسين أمه فاطمة قرة عين أبيها ، وفلذة كبده بعد أن تخطفت المنايا كل أولاد الرسول ﷺ بنين وبنات وإذا كان أبوها ﷺ قد اجتمع فيه ما تفرق في جميع الناس من صفات الكمال ، وخلال البطولة ، وخلائق النبل ، والولد ينزع إلى جده الذي ختمت به الرسالات فكيف يخفى أمره إلا على أبله حاقد .

وهكذا ترى الذكر هنا يشير إلى أن المخاطب في قمة الغباء الذي لا يفهم معه إلا بالتصريح ، ولذا كان الذكر هنا من بيان العربية الخالد الذي يتجدّد على الدهر والذي يُعْلي من بلاغة الجمال الذي يتكرر ولا يُمَل .

ومن أسباب ذكر المسند إليه قصد التسجيل على السامع بين يدي القاضي حتى لا يكون هناك من سبيل إلى الهروب والتفلّت والإنكار ، يقول القاضي لشاهد واقعة : هل أقر فلان بأن فعل كذا ؟ فيقول : نعم فلان أقر فلان بكذا ، فتذكر اسمه لتسجل عليه ، ولئلا يتأتى له سبيل إلى الإنكار بعد ذلك .

وقد يذكر المسند إليه للتصوير الباعث على الرهبة كما نراه في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة:١-٤) فذكر الأرض إلى جانب الإخراج للأثقال وقد كان يكفي ضميرها لسابق ذكرها بجانب الزلزلة يصور هذا الكوكب الهائل وقد تزلزل ، وتصدع ، وتشقق ، وأصبح يقذف بكل ما في جوفه ، وبطنه من أثقال مرهقة ، وأحمال مضنية على أن ذكر الأرض وحدها يثير فينا مشاعر التأمل والخوف والرهبة إذ تراها وهي الأرض المنبسطة الممتدة المترامية المستقرة الثابتة ، الصّلدة الجامدة التي تشاهد الثبات على سطحها تتحول إلى شيء آخر بعد أن تتزلزل فيتزلزل كل شيء عليها وفي داخلها ، وتتحول إلى شيء آخر ، وإلى مادة رخوة مضطربة تحت أقدامنا ، وتُخرج أحمالها ، وأثقالها من جثث مدفونة ، ومعادن مطمورة وكنوز مكنوزة ، وكل ما هو مختبئ مستور ، فانظر إلى أي مدى يلم بنا الفزع ، ويصيبنا الهول ، ويغشانا الرعب والذهول من مجرد هذا التصوّر .

من مجرد هذا الإحساس من رجفة هذا الزلزال وتوابعه ، وكيف يشعر بالمخاوف وهي تلتطم به وبالأخطار وهي تخنقه .

وقد يذكر المسند إليه لتفادي ذكر الضمير الذي يربط الجملة بالكلام السابق ؛ لأن المقصود استقلالها لتصير وكأنها مثل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (الحج:٦١،٦٢).

إن في إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وبيان أن الله هو الحق، وأن ما يدعى من دونه هو الباطل لدليلاً قويًا يستولي على كل قلب ويقنع كل عقل إذا سلِم القلب من الهوى وتجرد العقل من اللجاجة والعناد وأنت تنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فترى المسند إليه قد ذكر وهو لفظ الجلالة مع إمكان إقامة الضمير في مقامه، وإحلاله في مكانه؛ لأن الضمير لابد له من مرجع ومرجعه هو الكلام السابق ويراد ـ والله أعلم بمراده ـ أن تصير كل جملة منهما وكأنها مثل مستقل لا يفتقر إلى كلام سابق، لذا ذكر المسند إليه حتى يتحرر من الافتقار إلى مرجع سابق يُرجع إليه وحتى يتحقق له الاستقلال، وترى هذا الأسلوب كثيراً في فواصل الآيات كما يطل عليك من خلال الجمل المستأنفة التي جاءت في مكانها وهي بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر في النفس نشأ من الجملة الأولى، كما تقول أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان إليه، وتجده أيضًا في قوله تعالى حكاية عن وصية لقمان لولده: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧). وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (الأحزاب:١،٢).

ومن الواضح الجلي أن التذييل للآيات بهذه الجمل هو تذييل لها بما يقوم مقام المثل، الذي لا يفتقر في بعث دلالته، ولا المراد منه على كلام يسبقه، وإنما هو بصورته تلك جار مجرى المثل في أنه يصح أن يأتي مبتوراً من سياقه، ويؤدي معناه كاملاً وهو مستقل، والذي أعانه على ذلك، وأعطاه تلك

الميزة ، هو ذكر المسند إليه وهو لفظ الجلالة الذي لو لم يذكر لذكر الضمير الذي يرتبط بالكلام السابق لأن فيه مرجعه وتجد هذا الأسلوب شائعًا في القرآن الكريم عقب أساليب الطلب[1].

وقد يذكر المسند إليه ليستقر في النفس مرتبطًا بخبره وليقصد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده الذي يقصد إليه بالإضافة إلى ما في جمل الإسناد من تناسق إيقاعي يفوت لو لم يُذكر المسند إليه كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص:١،٢) .

ويدخل في هذا كل مسند إليه يحرص المتكلم على أن يضيف إليه الخبر في صورة واضحة لا غيم فيها ولا لبس ولا غموض ، خذ قول ابن الدمينة يعارض صاحبته أميمة حين خاطبته معاتبة :

وأنْتَ الذي أخْلَقْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي ... وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ

وأبرَزْتَنِي للنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي ... لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وأَنْتَ سَلِيمُ

فَلَوْ أن قَوْلاً يَكْلِمُ الجِسْمَ قَدْ بَدَا ... بِجِسْمِي مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ كُلُومُ

فقال لها :

وَأَنْتِ التي كَلَّفْتِنِي دَلَجَ السُّرَى ... وَجُونَ القَطَا بِالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ

وَأَنْتِ الَّتِي قَطَّعْتِ قَلْبِي حَزَازَةً ... قَرَقْتِ قَرْحَ القَلْبِ فَهْوَ كَلِيمُ

وَأَنْتِ التي أحْفَظْتِ قَوْمِي فكُلُّهُمْ ... بَعِيدُ الرِّضَا دانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ[2]

أعد قراءة هذه الأبيات واملأ فمك بكلماتها ، وافتح أذنيك لهمسها ، وتنغيمها ، وقلب نظرك فيها ، وسترى أنها عواطف تعتلج في الصدور إذ تشعرك بما يتردّد فيها من عتاب صارخ ، وتريك ما يجول في أديمها من

---

(١) خصائص التراكيب ص١٤٤ .

(٢) الخرازة : توجد الذي يقطع القلب . قرقت : قشرت . الكليم : الجريح . أحفظه : أغضبه .

الدمع الكاوي ، وتسمعك أنات القلب المكلوم المجروح ، إنها تتهمه بأنه وراء ما تعانيه من برح الآلام التي تضطرم في حنايا ضلوعها ، والتي تعصف بنفسها وجسدها عصفًا غير شفيق ولا رحيم ، لقد منَّاها أعذب الأماني حين كاشفها بهواه ، وصارحها بحبه ، وترجم لها عما يشتعل في قلبه مما يسومه سوء العذاب حتى تجاوبت مع آماله وأحلامه وبادلته ولهًا بوله ، وغرامًا بغرام وذاعت قصتها معه على كل لسان ، وشاعت وعُرفت في كل مكان ثم ما لبث أن نقض العهد ، وأخلف الوعد ونكث وغدر ، فأبرزها بذلك للناس وجعل منها هدفًا لألسنتهم ، وغرضًا لأراجيفهم وشائعاتهم وخرج هو سليمًا معافى لم تصبه رزية ، ولم يُرم برمية ، ولم يُصب بمكروه .

وإذا كانت أميمة قد عاتبته على هذا النحو فإنه عارض عتابها بعتاب ، وقابل اتهامها باتهام ، وأعلن في حديثه أنه أولى منها بالشفقة والمرحمة ، وأحق منها بالرأفة وطول الرثاء لما فعلت به ، ولما صنعت بقلبه الذي أعملت فيه المدى ، وقطَّعته بالسكاكين ، ومزقت قروحه في عنف ، وغير رحمة فبقي أشلاء مبعثرة ، تفهق جراحه بالدم ، وتنضح بالألم والأنين مع أنه عاش حياته لها ، مشغولاً عنها بها ، إذ كانت سعده ونحسه ، ونعيمه وبؤسه ، ولذته وألمه ، فكم عانى من الشوق إليها ما عانى ، وكم كلفه حبها الإدلاج في أحشاء الليل المظلم والسير في بيداء مجهل ، وقطع الفيافي والقفار يطالع وجوه المنايا ، ويعانق الأهوال والأخطار وهو مغتبط سعيد إذ كان يراها في مسراه من خلال بدر السماء ، ونجوم الليل ، ورخى النسيم ، والجو الطليق البهيج فيناجيها ويلاغيها وهو ينتشي من طيوف هواها التي تمس قلبه فيهفو ويختلج ، يفعل هذا في الوقت الذي يضرب الظلام أطنابه ، ويخيم السكون على كل شيء حتى على جون القطا لم تكن لتراه إلا جاثمًا بالجلهتين راقدًا لا يحلق ولا يطير ، ثم إنها قد أشعلت غضب قومه ، وأثارت حفيظتهم فتقطعت ما بينه وبينهم من أسباب المودة والرحمة بعد أن غضبت عليه قلوبهم ، وأصبح رضاها بعيدًا عنه لا يطمع فيه وصدودهم عنه واضحًا .

وحين تدير ذهنك في هذا الشعر وترى المسند إليه قد ذكر فيما ذكر فلأن الأحداث التي دارت إنما نُسبت إليه فذكره هنا طالعك على ألوان من العواطف ، وأوقفك على شكول من المشاعر ، وأراك إياها مقررة واضحة ، وهذا الذكر تراه كثيراً يشرق في الأسلوب من خلال أغراضه العتاب ، أو المدح ، أو الفخر إذ قد تدفعك الظروف إلى أن تقف من صديقك موقف المعاتب المصارح فتراك تمضي في حديثك كاشفًا له ما بسببه تعاتب ، فتقول له : أنا فعلت من أجلك كذا وأنت فعلت كذا وأنت صنعت كذا . تذكر المسند إليه ، وتنسب إليه الحدث ليكون في ذلك زيادة توضيح لما تريد أن تعاتبه فيه . ومثل العتاب أن تذكر لتضيف إلى المذكور المحامد والمآثر فتقول : أنا فعلت كذا من أجلك ، أنا عملت كذا ... إلخ . ومما قيل في مقام الفخر ما هو ذائع جهير من قول عمرو بن كلثوم [1] يتيه ويستعز ويستطيل .

وقد علم القبائل من معد ... إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا العاصمون إذا أطعنا ... وأنا الغارمون إذا عصينا

وأنا المنعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذ أتينا

وأنا الحاكمون بما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون لما سخطنا ... وأنا الآخذون إذا هوينا

وأنا الطالبون إذا نقمنا ... وأنا الضاربون إذا ابتلينا

وأنا النازلون بكل ثغر ... يخاف النازلون به المنونا

هذا شاعر ممتلئ تياه تراه هنا يجلجل بأعلى صوته يذيع على الدنيا أمجاد عشيرته ، ويعلن على الملأ قوتها ورهبتها فتثير كلماته الرعب في القلوب ، وتبعث الهول في الأفئدة ، وتستخف بالأمور الجسام ، وتجيش بالحياة ، وتنبض بالصرامة والعزم الجبار ، إنه يريك أهله لا يعصى لهم أمر ، ولا يتخلف عن

---

(١) أي غير معين .

طاعتهم أحد ، ولا يرغمون على شيء ومع أنهم أصحاب القوة والفتوة فهم الرجاء لكل حي ، وهم مناط الآمال لكل مؤمل ، وهم الملجأ والملاذ والوجهة والقصد إذا رُوعت النفوس ، وزلزلت القلوب ، وضرمت الأنفاس ، وقوضت حصون الأمل ، وحين تقلب نظرك في أبيات الشاعر لا يغيب عنك ما تراه من سر وراء هذا التوكيد يكرره مع كل بيت إذ ترى الرجل وهو يملأ فمه بما يحس به في نفسه من معاني السيادة ، والقوة ، والغلبة فيذيعه مؤكدًا كي يستقر في وعي المتلقي ، وفي ضميره ، ووجدانه على النحو الذي هو عليه عنده ، فأحاسيسه القوية الموثقة تتدفق على لسانه قوية صارمة ، والمعاني المقررة المؤكدة في جواه وفي داخله يتنفس بها في كلماته قوة تغلب ، وجمرًا يتلظى ، ونارًا تحرق وإعصارًا يدمر . وانظر إلى قول الشاعر : وقد علم القبائل غير فخر .. إلخ .

مما تشعر معه أن ما سيقصه عمرو أمر ذائع معروف وأنه من الجهارة بحيث يعلمه الجميع ، ولا يخفى أمره على أحد ، فهو شاعر فارس من قبيلة كلها شجعان فرسان وأنها من الأصالة ، والقوة ، والمروءة ، والسماحة والنجدة بحيث تفعل ما تريد من كل ما يتيه به العربي ، ويفخر ويستعز ويستطيل .

وأنت تنظر إلى كلامه فتجده قد شحن لك مجموعة من الضمائر ، ورصدها وكل ضمير بإزاء مكرمة من المكارم يمتدح بها العربي ، وتحقق له أكبر قدر من نباهة الشأن ، ورفعة السلطان ، وعز البيت ، وكرم المحتد وقد كان بوسعه ـ لو شاء ـ أن يستغني عن ذكر هذه الضمائر التي تكررت مع كل بيت في نبرة مستعلية ، وفي صوت جَهْوَري واضح ، ولكنه ذكرها ، لأن حسه مفعم بهذه المكارم ، جياش بها ، تختلج في أعماقه وتسري في كل كيانه ، وهو يثبت كل ضمير منفرد ومستقل إلى مكرمة من المكارم لأن في ذلك تقريرًا لها ، وإبرازًا ، وتوثيقًا ، وهو يريد أن يبعث بها إلى الغير الذي لا تخفى عليه مؤكدة كما هي مؤكدة لدى نفسه ، وموثقة كما أنها موثقة عنده .

ولا يخفى عليك أن الشاعر قد بدأ حديثه في الإعلان عن تلك المناقب والمفاخر بقوله : ولقد علم القبائل ، ليزيد من مساحة الفخر وليبين أن هذا أمر متعالم مشهور بحيث يعلمه الجميع ، ولا يخفى أمره على أحد أبدًا فهو من البداية التي يسلّم بها ولا يثور حولها جدل أو خلاف ؛ إذ إن علمها محقق موثق ، وهو ذائع جهير ليس مجالاً لأخذ ورد أو محلا لريبة أو شك .

* * *

تعريف المسند إليه

يؤتى بالمسند إليه معرفًا لبيان أن الفائدة تكون بتعريفه أتم وأكمل وأوضح وأشهر ؛ إذ إن احْتمال تحقق الفعل من معين أتم من احتمال تحققه من غير معين ، فحصول العلم بفعل كالضرب من أيٍّ سهل[1] ميسور فذلك مما لا يجهله أحد ، وعلى ذلك فالإخبار به غير محقق لفائدة كبيرة ولكن حصول العلم بالضرب من شخص معين يعطي فائدة أكبر وعليه فالإخبار به يكون أتم فائدة لعدم العلم به قبل الإخبار عنه .

والتعريف يأتي على وجوه بالإضمار ، وبالعلمية ، وبالإشارة ، والموصولية ... إلخ . والذي هو موضع اهتمام البلاغي من تعريف المسند إليه بأي نوع من أنواع المعرفة هو ما يخرج في استعماله عن أصل استخدامه في النحو إلى غيره فإذا كان المُعرف وخاصة الضمير قد خرج عن أصل استعماله فلابد من كشف السر وراء هذا الخروج وتتبعه ، ومعرفته ، لأن هذا هو الذي يُبحث عنه ويفتش عليه .

إيراد المسند إليه ضميرًا :

يؤتى بالمسند إليه ضميرًا إذا كان الحديث في أحد المقامات الثلاثة : المتكلم ، الخطاب ، الغيبة .

فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه كان المقام للتكلم كقوله ﷺ : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وإذا كان يتحدث عن غائب ورد له ذكر في الكلام ، أو كان في حكم المذكور لقرينة كان المقام للغيبة فينبغي أن يقول : هو كما تراه في قول الشاعر :

---

(١) أي غير معين .

من البيض الوجوهِ بني سنان لو أنك تستضيء بهم أضاءوا
همُ حَلّوا من الشرف المعَلّى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

ومثال ما هو في حكم المذكور لقرينة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ (النور:٢٨) وإذا كان المتكلم يخاطب إنسانًا أمامه كان المقام للخطاب فينبغي أن يقول أنت كما تراه في قول أميمة تخاطب ابن الدمينة :

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي وأشْمَتّ بِي منْ كان فِيك يلوم

هذا كله في الاستخدام النحوي ، لكن الخطاب قد يخرج عن أصل وضعه ويجري في اتجاه آخر ويكون وراءه داع بلاغي يوجب إتيانه ويفرض وجوده فيخاطب .

١- غير المعين كأن يراد مطلق مخاطب أي ما من شأنه أن يخاطب ، وذلك حين يراد تعميم الخطاب أي توجيهه إلى كل من يتأتى خطابه لا على سبيل التناول دفعة واحدة ، لأن الخطاب لابد أن يكون لمعين ، حتى لا يصير كالنكرات في الشيوع ، والإبهام ، والعموم ، ولذا حين يوجه إلى غير معين يكون العموم فيه عمومًا بدليًا للإشارة إلى أن الخطاب لا يجب أن يخرج عن أصل وضعه من كل وجه[1] اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة:١٢) تجد أن المخاطب في قوله سبحانه : (ترى) ليس مخاطبًا معينًا كما هو الأصل في الخطاب وإنما المقصود أي مخاطب يتأتى خطابه ، ذلك أن حال المجرمين في ذلك اليوم من الضعة والحقارة والمذلة والهوان بحيث لا تخفى على أحد بل إنها قد ذاعت ، وانتشرت ، واشتهرت بين يدي أهل المحشر جميعًا بحيث لا يختص بها شخص دون آخر ولا يراها راء وتحتجب عن راء

(١) المطول ص٧١ ، بغية الإيضاح ص٨٦ ، شرح السعد ١١١/١ .

آخر بل إن الأمر من الذيوع والجهارة ، والوضوح بحيث يكون في متناول الناس جميعًا ، وفي دائرة الرؤية الظاهرة لكل ما من شأنه أن يرى ، ويبصر ، وترى مثل هذا في قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فليس الخطاب هنا إلى شخص معين يقصده الشاعر ، ويوجه إليه حديثه بل إنه يخاطب به كل من يتأتى خطابه ويصلح لهذا الخطاب .

وعلى هذا النحو نجد هذا الخطاب على تلك الصورة في مثل قوله تعالى والله أعلى وأعلم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) إذ الخطاب هنا صالح لأن يكون عامًّا يتناول ما من شأنه أن يرى ويبصر ومثل هذا تجده في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ (الإنسان:٢٠) على أن هناك من المفسرين من قال إن الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ فيكون الخطاب لمعين فلا يكون مما نحن فيه لكنه بصيغته صالح لذلك ، وصالح لأن يكون لكل أحد تتأتى منه الرؤية والله أعلم .

٢- كما يخاطب غير المشاهد وذلك حين يكون حاضرًا في القلب كأنه نصب العين كما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) ومثل هذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) وما هو على شاكلة ذلك .

* * *

التعريف بالموصولية

المعروف الشائع أن الاسم الموصول في حد ذاته مبهم غامض ، غير محدد ، ولا معين ، ولا واضح ولذا فإن الذي يدفع عنه هذا الإبهام ، ويزيل هذا الغموض هي جملة الصلة عند انضمامها إليه حين تكون معلومة للمخاطب ، ولذا فإن الاسم الموصول لا يمكن أن يأتي في الكلام إلا ومعه جملة الصلة فهما لا يفترقان . ولما كانت جملة الصلة لابد أن تكون معروفة للمخاطب كان من وراء تعريف المسند إليه باسم الموصول أغراض بلاغية ومعان تفيدها جملة الصلة ، وتدل عليها ومنها ما يأتي :

عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة كما في قولك : الذي ألقى خطبة الجمعة رجل عالم ، تخاطب بهذا رجلاً يجهل كل شيء عمن ألقى الخطبة فلا يعرف شيئًا عنه لا اسمه ، ولا وظيفته ولا شيئًا آخر وإنما يعرف أنه سمع منه خطبة طيبة .

كما يلقى بالمسند إليه معرفًا بالموصولية إشارة إلى تعظيمه ، وعلو شأنه ورفعة قدره وسمو منزلته تنبيهًا إلى أنه يأمر فيجب أن يطاع ، ويقول فيجب أن يسمع قوله ، ويحكم فيجب أن ينفذ حكمه ويقضي فيكون قضاؤه شريعة لا تخالف ، وعقيدة لا تنكر وتجد هذا في القرآن الكريم كثيراً ، اقرأ قول الله تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك:١) وأنت تقرأ هذه الآية فتشيع فيك رضا النفس ، وطمأنينة القلب ، وسلام الضمير من خلال استشعارك في يقين ، وإيمانك في رسوخ أن التقديس ، والتنزيه ، والتعظيم ، والتحميد والتخشع ، والتذلل ، والخضوع .

إن هذه كلها وغيرها مما هو في محيطها ، ودائرتها يجب أن تكون لله الذي له وحده الملك ، وله وحده العزة والجاه والسلطان ، وهو وحده من غير أن

يكون معه أحد له التصرف في العوالم والأكوان وهو وحده مالك الملك الذي يدبر الأمر في سمو على مدارك العقل، وينفذ الحكم في ارتقاء عن فهم الناس، وهو وحده الذي تعنو له الوجوه، وتخر له الجباه، وتذل له الرقاب، وتخضع، وتخشع، وتنقاد، وتسلم طواعية، وذلة واستجابة فهو وحده المتصرف في الكائنات بالإحياء والإماتة، وبالإيجاد والإفناء، والذي أعان على ذلك وساعد عليه هو التعبير باسم الموصول الذي أثار أشواق النفس، وتطلعاتها، وحرك فيها كوامن البحث عن معرفة هذا القادر الذي تعاظم شأنه، وتعالى سلطانه، فملك كل شيء وليس هناك من شيء يعجزه وإنما الكل واقع تحت قهره وسلطانه وتحت مشيئته وإرادته سبحانه.

واقرأ القول الكريم في سياقه الذي ورد فيه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ووازن بينه وبين ما لو جاء في غير القرآن (تبارك الله بيده الملك وهو على كل شيء قدير) تجد الأمر على ما شرحت لك إذ تلمح من وراء استعمال الاسم الموصول هنا ما سبق أن حدثتك عنه من هذه المعاني التي تأتي ثمرة لهذا التشويق الذي حرك النفس من داخلها، وبعث فيها تطلعاتها ورغائبها في أن تتساءل عن هذا القادر الذي يملك الملك، وبيده وحده التصرف في كل العوالم والأكوان من غير أن يعجزه شيء فتذل وتخشع وتلين وتخضع بعد أن تعرف أنه الله وليس شيئًا آخر ومن ثَمَّ ترسل النظر في ملكه متأملة مفكرة وتدير عقلاً واعيًا في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وفي الحياة والأحياء، وفي النهر والجبل، وفي صنعة الله المترامية تراها في كل شيء على نحو يستولي على كل قلب، ويأسر كل شعور فتهتدي إليه سبحانه ولا يكون بوسعها وقد رأت ما رأت إلا أن تؤمن عن برهان لا عن محاكاة ولا تقليد، وتملأ العقيدة الصحيحة قلبها بعد أن أشرق فيه نور الله فحرّره من أسر العبودية العقلية التي تقتل التفكير وتغفل الرؤية الصحيحة.

وقد يكون الغرض المسوق له الكلام زيادة التوضيح وإفادة التقرير واقرأ قول الله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ (يوسف:٢٣) ترى اسم الموصول هنا ينهض بدور أساسي في إثبات نزاهة سيدنا يوسف عليه السلام على نحو من التمكين ، والتقرير ، والتثبيت إذ إن الحدث يجري في بيت امرأة العزيز ومعها هي في معقل من معاقلها ، وفي قصرها ومنزلها وهو فيه معها لابث مقيم لا يبرحه لا في جزء صغير من ليل أو من نهار وهي قابضة عليه ، ومتمكنة منه تمكنًا لا يجعله يغيب عن عينها ، لا في رقدة ، ولا في يقظة ، ولا في وقت من الأوقات وهي تستخدم كل ألاعيبها ، وحيلها وترمي عليه بكل شباكها وإغرائها ، وتلح وتمضي في الإلحاح وتراوده وتكرّر المراودة ، وتتحلى وتتزين ، وتتكلم فتتكسر في كلامها وتمشي فتتمايل في مشيتها ، وتبتسم فتصب في ابتسامتها كل ولهها وهواها ، وتنظر فتُحكم نظرتها التي تسكب فيها كل ضعفها ودلالها وغرامها وجنونها ، هي تفعل كل ذلك في فتنة تستطير اللب ، وتخلب العقل وهو عليه السلام يستعلي على كل رغائب النفس ، ويستعصم بجلال الإيمان ـ وليس وراء ذلك كله من نزاهة تعدل هذه النزاهة أو تقترب منها ـ لقد بلغت نزاهة سيدنا يوسف الحد الذي أوْفَت معه على الغاية التي ليس من بعدها غاية ، والذي أعان على فهم ذلك هو التعبير باسم الموصول ، إذ هو الذي بعث كل هذه الأجواء ، ونقلنا إلى مسرح الأحداث ، وإلى الموقع الذي جرى فيه هذا المشهد ، ولو أن التعبير جاء خاليًا من اسم الموصول وعبر بالاسم الصريح المباشر فقال مثلاً : (وراودته زليخا أو امرأة العزيز) لتوارت كل هذه المعاني ، ولما قرّرَ الكلام النزاهة وجلاّها ، وحقّقها وأثبتها على النحو الذي رأيتها فيه مع جملة الصلة .

وقد يكون من وراء ذكر المسند إليه بالاسم الموصول التحقير له ، واقرأ قول الله تعالى حاكيًا الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وبين من حاجّه

في ربه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) أعد قراءة الآية لترى فيها صورة من التجبر بالباطل ، والاستبداد بالقوة ، والعلو في الأرض ، والبغي بسلطان الملك ، والتطاول بعز الجاه ولتبصر هذا الذي حاج إبراهيم وقد طغى في وجهه الدم ، ونزا في رأسه الغضب ، وثارت في نفسه حمية الجاهلية وجرى لسانه بكلمات أعلنت عن تفكك الخلق ، وتغلب الأثرة ، وتحكم السفاهة ، وضياع الدين فدمغته بالكفر ، وأورثته اللعنة ، وهوت به إلى أسوأ مصير وفي الجانب المقابل ترى جلال النبوة ، وقوة الحق ، وفيض الإيمان ، وإشراقة الوجدان ، والمجالدة بالصبر ، والمجادلة بالمنطق ، والمصاولة بالبرهان ، والمجاهدة بالصدق مما كان سببًا في أن يبهت الذي كفر ، ويُدهش ، ويتحير ، ولا يُحْري جوابًا وانظر إلى التعبير بجملة الصلة ﴿ الَّذِي كَفَرَ ﴾ لترى التحقير الذي بلغ الغاية بعد أن انتصر سلطان الحق في منطق خليل الرحمن إبراهيم وتمرغ الذي كفر في أوحال الهزيمة والانكسار ، ولصق خده بالأرض ، وأهينت كبرياؤه ، وغدا مثلاً للهوان والحقارة والضعة يثن أنين الخيبة من الهزيمة والانكسار أمام معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان رسولاً في الدين وعلمًا في البلاغة .

وقد يكون الغرض من الإتيان بالمسند إليه اسمًا موصولاً التفخيم ، والامتلاء ، والتكبير ، والتعظيم ، والتهويل . وقف مليًا أمام التصوير القرآني للمشهد الأخير في حياة الطاغية فرعون بعد أن علا في الأرض ، وعلا بجبروته إلى درجة ظن معها أنه سيطلع إلى إله موسى في السماء ، وسخر الدهر لتمجيده ، والإنسان كل الإنسان لتخليده وتعظيمه ، وفي لحظة خاطفة أمسى جيفة قذرة في زاوية من زوايا الإهمال والنسيان والضياع بعد أن غضب عليه جبار السماء سبحانه ، فإذا به ومن معه في قلب البحر تتقاذفهم أمواجه الغاضبة

في عنف وقسوة وترمي بهم على الشاطئ ليكون هو ومن معه عبرة للتاريخ وآية للناس ومثلاً لكل متكبر مستبد لا يؤمن بيوم الحساب .

واقرأ الهول والرعب المطلان عليك معًا من خلال الكلمات في قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (طه:٧٨) ولن يخفى عليك أن الإبهام المتخفي هنا في صلة (ما) الموصولة هو الذي دفع بالنفس دفعًا قويًّا إلى أن تذهب في تقدير (ما) هذا المذهب الذي ليس من وراء عظمته ، وهوله وشدته مذهب ذلك أن (ما) الموصولة على العكس من بقية أخواتها في أن صلتها مجهولة غير معلومة ، وهذا الجهل الذي غلف جملة الصلة وأحاط بها هو الذي جعل (ما) هنا تفيد التعظيم وهو تعظيم يجيء لها من ناحيتي الكم والكيف معًا ، أما الكم فلكثرة الماء المتدافع الذي أحاط بأولئك العتاة الظالمين على نحو لا يمكن للوهم من إدراكه ، ولا للوصف من تحديده إذ بلغ من الكثرة مبلغًا يعلو على كل وهم ، ويعجز كل وصف ، وأما الكيف فلهذه السرعة السريعة الذي غشيهم بها الموج ، وأخذهم أخذًا شديدًا ، وطوى صفحة وجودهم وأنهى قصة حياتهم[1] من غير أن يترك لهم فرصة للتغلب ، والنجاة مما يزيد من قدر المأساة ويضاعف من هول الكارثة .

وعلى هذا النحو في التفخيم ، والتضخيم ، والتهويل ، وما تراه في قوله تعالى تعظيمًا له سبحانه : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ (النجم:١٦) إذ في هذا إظهار للمسند إليه في صورة ممتلئة مفخمة تقديسًا لله وإعلاء له سبحانه ؛ إذ إن ما يغشى السدرة وما يحيط بها من مخلوقات الله ما يدل أوضح الدلالة ، ويبين أظهر الإبانة على أن عظمة الله شيء فوق الوهم ، وفوق الخيال ، وفوق الوصف ، وفوق كل أولئك جميعًا .

---

(١) انظر تجريد البناني على مختصر السعد صـ ٢١٩ ، ٢٢٠ ، والمنهاج الواضح ٢٥/١ حامد عوني .

وترى اسم الموصول يفيد التفخيم في قول الشاعر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باقٍ يطلب الباقي

فهذا رجل قد تجردت نفسه للخمر ، وخلصت لها أوقاته ، وانقطعت إليها حواسه حتى أتت على أكبر قدر من عقله وما بقي في الزجاجة من ثمالة على قدر ما بقي في العقل من بقية ، والأولى تطلب الثانية حتى لا يبقى شيء من الوعي ، ويغيب مع الخمر عقله كله وليس يخفى عليك ما تراه من تفخيم وتهويل بعث بهما هنا التعبير بـ (ما) الموصولة التي حققت هذا في ظهور وجلاء .

وقد يكون الداعي إلى التعبير بالمسند إليه اسم موصول إفادة التخطئة للمخاطب أو غيره فيما يدعى أو يزعم وفي مدلول الصلة ما يدل عليه ويشير إليه ، ويبين عنه في كشف ووضوح ، وذلك على نحو ما تراه في قول الشاعر عبدة بن الطبيب يعظ بنيه ويوصيهم ويضع أمامهم تجربته مع الحياة والأحياء فيقول :

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

وهو من قصيدة خاطب فيها بنيه وبدأها بقوله :

أبَنيَّ إني قد كَبِرتُ ورَابَني بصري وفي لمصلح مُسْتَمْتَع
فلئنْ هلكت لقد بنيتُ مساعيا تبقى لكم منها مآثر أربع
ذكرٌ إذا ذكر الكرامُ يزينكمْ ووراثه الحسب المقدَّم تَنْفعُ
ومقامُ أيامٍ لهن فضيلةٌ عند الحفيظةِ والمجامعُ تُجْمَع
ولُهًا من الكسبِ الذي يُغْنيكُم يَومًا إذا احتضرَ النفوسَ المطمعُ
أوصيكُمْ بتُقى الإله فإنهُ يُعطي الرّغائبَ من يشاء ويَمْنَع[1]

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١/١٠٠ ، والمفضليات للمفضل بن محمد ابن يعلى الضبي صـ ١٤٦ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون .

وبـــر والـــدكمْ وطَاعـــة أمـــره إنّ الأَبَـــرَّ مـــن البـــنين الأَطْـــوَعُ

إن الكَـــبيرَ إذا عصـــاه أهلـــه ضـــاقت يـــداه بـــأمرِهِ مـــا يصـــنع

وفي البيت موطن الشاهد إن الذين ترونهم إخوانكم إلخ ، ترى الشاعر أراد أن ينبه أولاده ، إلى خطئهم في الحساب والتقدير حين يبين لهم أن من يتوهمون أنهم يد تواسي في الشدة وقلب يخفق في المصيبة ولسان يحتج في المظلمة ، وقوة تعين على النوائب وأخوة تدخر ليوم الكريهة هم على النقيض من كل ذلك ، فمشاعرهم تجاهكم سوداء مظلمة ، وقلوبهم ملوثة حاقدة ، ومنتهى آمالهم أن يضربكم الدهر فيدميكم ، وأن يرميكم فيصميكم ، وأن يصيبكم بالأرزاء التي تحطمكم ، ولا تبقي على شيء فيكم ، فلا يشفى غليل صدورهم ، ولا يطفئ نار حقدهم ، إلا أن تحل بكم الكوارث التي تصرعكم وتأتي على أولكم وآخركم .

وعلى هذا النحو نجد الرجل يسوق وصيته لأبنائه محذرًا إياهم من الوثوق بتلك الجماعة ، والركون إليها ، وبثها شكايتهم ، وعقد مناط الآمال عليها على اعتبار أنها من الإخوان إذ الحقيقة أنها على خلاف ذلك وهو بهذا يريد تخطئة بنيه في ظنهم ، والتعبير باسم الموصول هنا إنما أفاد تلك التخطئة ، وأشعر بها وبينها تبيينًا كاملاً ولو أن الرجل لجأ إلى أسلوب آخر غير اسم الموصول فعبر عن هذا المعنى لما أفاده ولما حققه .

ووازن بين قول الشاعر السابق الذي أفاد التخطئة على نحو لا مجال للجدل فيه ، وبين الكلام لو جاء مثلا على نحو آخر ، فقال : إن القوم الفلانيين يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا لوجدت دلالة الكلام هنا على معنى التخطئة يتضاءل ، وحظه من إفادة هذا المعنى يتناقص فضلا على أن مذاقه هنا ليس كمذاقه في قول الشاعر الذي ينصره السياق ، ويؤيده الذوق الذي لا يمكن أن يغيب عنه مدى الخطأ الذي وقع فيه المخاطب بمجرد أن يسمع من الشاعر ، إن الذين ترونهم إخوانكم ؛ إذ إن وحي العبارة هنا يشير إلى هذا في إبانة وإفصاح .

وترى هذا واضحًا في قول عروة بن الورد يدفع به خطأ وقعت فيه صاحبته ، ويرد وهما توهمته ، وظنًا عاشت فيه حين هتف فقال :

إن التي زعمت فؤادك ملها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها واجلّها

وانظر إلى الشاعر الذي تعلق قلبه بهذه الفتاة وأصبح يرى فيها بدر ليله ، وشمس نهاره بل أصبح يرى فيها وجوده كله فهي ليست شيئًا منفصلاً عنه بل إنهما معًا كيان واحد ووجود واحد فهو وهي دم يتدفق في دم ، وقلب يمتزج بقلب ، وروح تفنى في روح وهوى يذوب في هوى والتعبير باسم الموصول تنبيه إلى خطأ فتاته وإلى تجنيها عليه حين زعمت أن فؤاده ملها وسئمها ، وأنه شغل عنها بغيرها وسلا عن حبها بسواها ولذا جاء البيت الثاني بيضاء باكرها النعيم ؛ ليؤكد به معنى الخطأ الذي وقعت فيه والذي دل عليه التعبير باسم الموصول إذ كيف يسلو عنها وهو يراها ممشوقة القد ، مشرقة الوجه حتى ليخيل إليك أن وجهها من شدة البياض تجول فيه الشمس باكرها النعيم فصاغها على نحو من الفتنة المثيرة ، والجمال الخالب ، الذي يصبي المشاعر ، ويسبي الأحاسيس .

ومثل ذلك في إفادة التخطئة للمخاطب قول الشاعر :

إن الذين حسبتهم في عسرة ... هم أثرياء يملكون ضياعًا

ففي التعبير بالموصولة إشارة واضحة إلى تنبيه المخاطب على خطأ واقع في حسابه وتقديره .

وقد يكون الغرض من التعبير بالموصول الإيماء إلى وجه بناء الخبر كما تجده في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ (الكهف:١٠٧) فأنت حين تقرأ قول الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ تدرك أن الخبر من جنس النعيم والمتعة والثواب والجزاء

الحسن وتجد هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ففي مدلول الصلة وهو الاستكبار عن عبادة الله وعدم الاستجابة لأمره ما يشير إلى نوع الخبر وهذا ما تجده في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة:٢٧) فأنت ترى في مضمون الصلة من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وما عطف على هذا المدلول ، من كونهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، وإفسادهم في الأرض ما يشير إلى نوع الخبر وأنه من جنس النكال ، والعذاب والترويع ، والخسارة وترى مدلول الصلة يشير إلى الخبر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠١) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت:٣٠) وتجد هذا كثيرًا في كل كلام يحمل فيه المبتدأ من المعاني ما يجعل النفس تتوقع نوع الخبر الذي تتم به الفائدة ، ويتحقق به الإسناد فبداية الحديث تشعر بما تكون عليه الخاتمة وهذا لون من ألوان الأداء البياني الراقي الذي تجد فيه انسجامًا كاملاً بين جميع عناصره إذ يتحقق فيه التناسب بين بداية الجملة وخاتمتها فلا تكون هناك فجوة ، أو انفصال بين المبتدأ الذي يلوح بشيء وكأنه يطلبه ويشير إليه ، وبين الخبر الذي جاء تلبية واستجابة لمضمون المبتدأ .

والإيماء إلى نوع الخبر قد يكون وسيلة من الوسائل الذي يصل المتكلم به إلى تعظيم أمر أو التهوين منه وانظر إلى قول الفرزدق يباهي بعشيرته ويزدهي بها ويزدان وفي نفس الوقت يتطاول على جرير الذي لا يملك من حسب العشيرة ما يملك فيقول :

إنّ الذي سمك السماءَ بنى لنا ... بيتًا دعائمُه أعزُّ وأطولُ

بيتًا بناه لنا المليكُ وما بنى ملكُ السماء فإنه لا يُنقلُ
بيتًا زرارة مُحتبٍ بفنائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشَلُ

وحديثنا مع البيت الأول والشاهد فيه ما تراه من جعل الإيماء إلى وجه الخبر وسيلة إلى التعريض بالتعظيم لشأنه ، فأنت تشعر من بداية قوله : إن الذي سمك السماء أن الخبر الذي يتم به معنى هذا الكلام لابد أن يكون متوافقًا معه ، وعلى قدره لابد أن يكون شيئًا من جنس الرفعة ، والبناء ، والعظمة والذي حقق هذا وأفاده هو التعبير باسم الموصول ووازن بين هذا وبين قولٍ آخر لا يتضمن اسم الموصول كأن يكون مثلاً : إن الله أو إن الرحمن فلا تجد الإشارة الدالة على نوع الخبر وليس مما يخفى أنك تلمح هنا تعريضًا واضحًا بعظمة هذا البيت ، وارتفاع شأنه إذ إنه من بناء الذي رفع السماء ، وبناها فأحسن البناء : وأي جمال أملك للنواظر ، والخواطر من سماء هي من بناء الصانع المبدع ، والفاعل المختار .

وتجد الإيماء إلى نوع الخبر وسيلة من الوسائل التي يعظم بها أمره في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٩٢) فإن في مدلول الصلة ما يشي بنوع الخبر وبما ينم عنه ، وهو شيء من ألوان الخسارة إذ كذبوا نبيًا من أنبياء الله ورسولاً من رسله جاء بما يسعدهم ولا يشقيهم فإن فيه إضافة إلى ذلك تعريضًا ظاهرًا برفعة شأن شعيب عليه السلام ، وبتعظيم أمره الذي حمل رسالة الله إلى قومه وأمرهم بتوفية الكيل لا يسنده سلطان ، وحين عارضوه ما تضعضع عزمه وقابل عنادهم وسفههم بالحلم ، وفظاظتهم بالرقة من أجل هذا كان التعريض ظاهر بعلو شأنه ورفعة قدره

كما أن الإيماء إلى نوع بناء الخبر قد يكون وسيلة إلى الإهانة ، وسبيلا إلى تحقير وَضَعَة وتلمح ذلك في قولك : إن الذي لا يحسن فن البلاغة قد ألف

فيها ، أو أن العييَّ الذي لا يتكلم قد ألقى خطبة ، فلا شك أنك تلمح هنا تعريضًا بالتهوين من شأن الكتاب المؤلَّف ممن لا يحسن التأليف ، وبشأن الخطبة التي ألقاها العَيِيّ الذي لا يحسن الإبانة والإفصاح .

وإذا كنت ترى الصلة تومئ إلى نوع بناء الخبر ، فإنك تراها مع ذلك بمثابة الدليل على تحقيق الخبر وثبوته[1] كما تراه في قول عبدة بن الطيب :

إنّ الّتي ضَرَبَتْ بيتًا مُهاجِرَة بِكُوفة الجُنْدِ غَالَتْ وُدّها غُول

وكوفة الجند مدينة بالكوفة وغالت : اغتالت وأكلت ، وفي قوله : التي ضربت بيتًا مهاجرة أي اتخذت لها بيتًا في مكان ناء بعيد وجعلته موطن إقامة لها .

وإذا كنت ترى الشاعر يسكب دمع عينه ، وينزف دم قلبه تحسرًا على قسوة حبيبه ، وجفائه ، ونأيه ، وهجره ، واتخاذه مكانًا آخر بعيدًا عن موطن الحب والذكريات يقيم فيه ، ويمكث فقد أدى ذلك إلى تَصَرُّم حبال الود ، وتقطّع ما بينها وبين الشاعر المتحسر من علاقة ، وهذا ما أومأت إليه الصلة وأشارت إليه ؛إذ جاء الخبر متناسبًا مع ما أوحت به جملة الصلة التي ألمحت إلى أن من نوع انقطاع المحبة ، وانصرام المودة فالوطن قطعة من حياة الإنسان ، ومن وجوده ودمه وهو لا يتركه إلا إذا كان ضائقًا بمن فيه ، كارهًا لهم ، راغبًا عنهم ، ومع أنك تلمح هذا في مدلول الصلة إلا أنك تلمح فيها أيضًا أنه أشبه ما يكون بالدليل على تحقيق هذا الجفاء ، وثبوته وتحققه ، ومن أجل هذا ساغ للمهاجرة أن تفارق الأحبة وأن تتخذ لها مكانًا نائيًا بعيدًا تقيم فيه وتبقي وتعيش ، وهو ما لا تجده في بيت الفرزدق السابق :

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول

---

(١) انظر المطول صـ ٧٦ .

فهو وإن أشار إلى نوع بناء الخبر لا دليل فيه على تحقيق هذا البناء وثبوته إذ لا يلزم من رفع السماء بناء البيت المذكور[1] .

وقد يكون الغرض من الإتيان بالمسند إليه معرفًا بالاسم الموصول مقارنة حال بحال وموازنتها بها واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت:٣٩) إن النظر الدقيق الفاحص لا يمانع من أن يقال إن الله أحياها وسيحيي الموتى فلماذا آثر التعبير بالموصول ؟ لماذا قال إن الذي أحياها ولم يقل إن الله أحياها ؟

لابد أن يكون من وراء ذلك سر حتم التعبير بالموصول وفرضه ذلك أن الكلمة القرآنية لا يمكن أن تُغيّر ، ولا أن يضحي بها ، وتستبدل بغيرها حتى لو كان هذا الغير مرادفًا يحمل المعنى في عمومه ؛ لأنها تأتي وتستقر في موقعها من السياق حيث لا يغني غيرها غناءها ، ولا ينهض بما تنهض به في مكانها .

وهذا ما تراه هنا كما تراه في كل كلمات القرآن ، فالتعبير بالموصول في هذا المقام يُشْغِل الذهن ويُشْعِلُ العقل ، ويثير النفس ، ويحقق لها اللذة والمتعة ، فالتعبير باسم الموصول بدلا من لفظ الجلالة يحرك العقول ، يحثها على البحث ، والاستقصاء ، والنظر ، والتأمل ، في ملكوت الله الواسع ، وفي الله الخالق الذي أوجد هذا العالم العريض ، وأحيا الأرض ، وجعلها تتفجر بالخصب ، وبالنبات ، وأوجد الناس جميعًا على نحو من الإتقان يجل عن النظير والعقل حين يشتعل بالتفكير يؤكد هذا ، ويثبته ، ويقرره ، ويذعن له ، ويسلم به من غير مماراة ، ولا مجادلة ، الناس يرون الأرض أمامهم هامدة جامدة جافة قاحلة ، لا زرع فيها ، ولا ضرع ، ثم هم أنفسهم يرونها بعد ذلك

---

(١) المطول ، صـ ٧٥ ، ٧٦ .

وسر الحياة يستعلن فيها فتنتعش التربة الهامدة ، وتتشقق عن أجنة النبت الوليدة التي تحوك على أديم الثرى بساطًا من الخضرة الزاهية على نحو يجعل ابن آدم يسبح في فيض سماوي من الجمال والنشوة والغبطة ، هم يشاهدون ذلك ، ويرونه معادًا مكرراً .

والتعبير بالموصول دفع لهم وحث وتشويق إلى أن يقيسوا الغائب على الحاضر المشاهد وأن يأخذوا من بعث الحياة في الأرض الذي يرونه وليس بوسعهم جحده أو إنكاره مقياسًا يقيسون عليه إحياء الموتى المجهول لهم فإن هذا من نوع ذاك ، والقضية واحدة ، فالتعبير باسم الموصول يحصرهم في هذه الدائرة للتسليم والإذعان ، والإقرار ، فإذا كانوا قد أقروا بالإحياء للأرض لأنهم شاهدوها فعليهم أن يقروا ويقرروا قدرة الله على إحياء الموتى لأنهما معًا من نوع واحد ، وفاعلهما واحد وهو الصانع المختار سبحانه .

وهذه هي فلسفة القرآن التي هي منتهى الحق وغايته والتي تقدّم المشهد في صورة تقنع العقل وتمتع الذوق ، والتي تضع فيه من الألوان ما يكون أداة بارعة وقوية للتدليل على حقيقة البعث من خلال المشاهدة البصرية للواقع على الأرض الموات ، ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، فالذي أحيا الأرض بعد موات هو الذي سيبعث الإنسان بعد موات وعلى الإنسان أن يقيس غير المشاهد على المشاهد الذي يبصره ويراه ويطالعه في حياته بلا تلفيق ولا ادعاء .

وقد يؤتى بالمسند إليه اسمًا موصولاً لأن جملة الصلة التي تدفع الإبهام والغموض في الاسم الموصول تدفعه بما هو أهل له ، وتسمه بميسم لا يمكن أن يغيب عنه أو أن يتخلف ، وتسجل معناها عليه تسجيلا لا يمكن له أن ينفك أو أن ينفصل ، واقرأ قول الله تعالى الذي يبين أن الذي يشرك بالله ، ويتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحبه لله أو أكثر إنسان ينتظره سوء المصير الذي يتردى به في نار جهنم خالدًا فيها : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ (البقرة:١٦٥)

وتأمل التعبير بالاسم الموصول هنا في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ وكان الظاهر من السياق أن التعبير سيكون بالضمير لسبق ذكرهم قبل ذلك فيكون القول في غير القرآن : (ولو يرون العذاب) ولكنه عبر بالاسم الموصول لسر يجب ألا تغيب معرفته ، وهو دمغهم بالظلم ووسمهم به ، وتسجيله عليهم ، ووصفهم به بواسطة جملة الصلة وصفًا يلاحقهم ، ولا يتخلف عنهم بحيث إذا نالوا بسبب هذا الظلم أشد العذاب كان العذاب عادلاً ، وكان موافقًا لفداحة جرمهم ، وعظيم مخالفتهم ، وتجبر ظلمهم .

ولذا تلمح في السياق هنا حذف جواب (لو) لتفخيمه ، وتهويله بحيث تذهب النفس في تصور هوله ، وعنفه ، وضخامته ، مذهبًا بعيدًا في الاستعظام والاستكثار ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ لرأوا ماذا؟ وأمسك عن ذكر الجواب إشارة إلى أنه من الضخامة ، والشدة بحيث لا يحيط به عقل ولا يحصره وصف ، فهم لو رأوه لرأوا ما لا يوصف من الهول ، والخوف ، والفظاعة والسياق يمضي مبينا أن فريقا من الناس يتخذون من دون الله أندادا «أمثالا»[1] من الأصنام على حد ما يذهب صاحب الكشاف وغيره على حساب زمن وعصر من الرياسات والمصالح أيا كانت تلك التي يتخذونها ولكن اتخاذها بجنب الله شرك خفي إذا تعلق القلب بحبها وانشغل بها عن حب الله فكيف يكون الحال إذا نزع حب الله من القلب وأحل حبّها بديلاً عنه ؟ لأن المفروض أن الحب لا يكون إلا لله على خلاف المؤمنين الذين خلت قلوبهم من كل شيء وامتلأت بحب الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وليس لأي اعتبارات أو مكاسب مهما كان كل ذلك لأن حب الله سبحانه

(١) تفسير الكشاف ١٠٦/١ .

فوق كل موازين الأرض وحسابها ؛ لذا كان التعبير الذي يتجلجل وكأنه صيحة النذير أو رجفة الزلزال : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ لرأوا من فداحة الأهوال الجسيمة المروِّعة ما لا يمكن أن يُتصوّر أو يتخيل لأن ما فيه من هول وضخامة ورعب وشدة فوق كل تصور وكل خيال وساعتها سيكون التّلاوُم بين التابعين والمتبوعين على نحو ما سجل القرآن : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(البقرة:١٦٥-١٦٧).

وإنه لمشهد مؤثر وصدق الله الذي يقول في سورة ص ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (ص:٦٤).

تعريف المسند إليه باسم الإشارة

قد يفرض المقام تعريف المسند إليه باسم الإشارة وذلك لإحضار المشار إليه في ذهن السامع بواسطة الإشارة إليه حسًّا إذ إن اسم الإشارة بحكم دلالته اللغوية يحدد المشار إليه تحديدًا ظاهرًا ويبرزه إبرازًا كاملا ، وينقله إليه مشخصًا ، مجسمًا ، بارزًا ظاهرًا بكل قسماته وملامحه ، وشياته ، ونَمْنَماته فلا يغيب عنه شيء منه بل يضعه أمامه على نحو يستطيع معه أن يميزه أكمل تمييز فلا يلتبس بغيره ، ولا يتشابه بسواه مما يمنح الخبر مزيدًا من القوة ، والتقرير ، والتثبيت ، خذ قول ابن الرومي في مدح أبي الصقر الشيباني :

هذا أبو الصقرِ فَرْدًا في محاسنه ... من نسلِ شيبانَ بين الضّال والسَّلمِ

ونحن هنا أمام شاعر يمدح ممدوحه فيرتفع به فوق السحاب ، إذ يريك تميزه في المحاسن ، وتفرده فيها تميزًا وتفردًا ، يرتقيان به إلى منزلة عالية

لا يستطيع أن يصل إلى مطارها طائر ، والتعريف بالإشارة لتمييزه التمييز الأكمل ، ولإحضاره في الذهن بواسطة الإشارة الحسية التي تريك إياه في صورته الظاهرة فلا يشتبه عليك ، ولا يتلبس ، وتجد هذا في قول المتنبي إشارة إلى ممدوحيه :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البُنَا وإن عاهدوا أوفَوا وإنْ عقَدوا شدّوا

فالمتنبي هنا يصف ممدوحيه بأنهم أشراف ماجدون ، إذ بهم يولد كل معنى نبيل وجميل ، تجمعت فيهم كل المحامد ، وتلاقت فيهم كل الفضائل لهم في كل قلب آية ، وفي كل تاريخ صفحة يطلبون المجد من أشرف السبل لا ينكثون العهد ، ولا يخلفون الوعد إذا سجلوا على أنفسهم عهدًا كان شريعة لا تخالف ، وحكمًا لا يرد وإذا أرادوا شيئًا أحكموا تنفيذه إذ هو عندهم عقيدة لا تنكر ، وعملا لابد أن يقضى ، فلا يتهاونون ، ولا يبطئون وإنما عبر باسم الإشارة لإفادة أنهم متميزون في ذلك على نحو لا يشاركهم فيه غيرهم ، ولا ينازعهم فيه سواهم .

واقرأ قول الله تعالى في شأن الإفك : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (النور:١٢) وتجد اسم الإشارة محددًا لهذا الإفك ، حاصرًا له ، مظهرًا إياه على نحو يجعل منه إفكًا واضحًا ظاهرًا وتخرصًا بينًا ،وكذبًا لا لبس فيه ولا غيم ولا إبهام ولا غموض .

وقد يعرف المسند إليه باسم الإشارة للتعريض بغباوة السامع وانظر إلى القول الذائع في هجو جرير :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

إذ أشار التعبير باسم الإشارة إلى رمي السامع بأنه أحمق غبي لا يمكن أن يفهم إلا البارز الظاهر في المدرك المحسوس ، ومن ثَمَّ كانت الإشارة هنا داعية إلى هذا الفهم ، وأن المخاطب غبي من الصعب أن يفهم إلا ما يقع تحت نطاق الحواس .

وانظر إلى الإشارة اللافتة في قول الشاعر : أولئك آبائي وما يشعر به هذا القول من أنهم كالشمس يسطعون في كل أفق ، ويشرقون في كل مكان ، ولا يغيب هذا إلا عن غبي حقود ، ثم انظر إلى صورة الأمر هنا وما يرمي إليه من التعجيز ، والقهر ، إذ ليس في وسع جرير ، ولا يملك أن يأتي بآباء له كهؤلاء الآباء وذلك غمز للشاعر ، واتهام له بحقارة النسب ، وضعة الأصل ، ثم انظر إلى قوله : فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع مما يوحي بالمباهاة التي تؤكد المعنى السابق وتقويه إذ يريد أن يقول له : إنك تعجز عن أن تأتي لك بآباء كآبائي وهذا أمر لا خلاف عليه ، ولا نقاش حوله وهو أمر يسلم به الناس إذا جمعتنا معًا مجامع الفخر ، والمباهاة بالأحساب والأنساب ، ولا يخفى ذلك إلا على جاهل أو غبي .

هذا ومن الممكن أن يكون استخدام اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد إشارة إلى بعد مكانتهم ، وعلو منزلتهم ، وارتفاع قدرهم ، وهو بعد في المكانة لا يستطيع جرير أن يتطاول إليها ، ولا أن يحاول الوصول إليها لأنه لا يقدر ولا يستطيع ، فقبيلة الشاعر معروفة بهذا المجد والفضل . فمن أين له بمثلها ؟

ومما يستخدم فيه اسم الإشارة ويكون الغرض من استخدامه التعريض بغباوة السامع ما تراه في أبيات الفرزدق الذي قالها في شأن هشام ابن عبد الملك حين دفعه الحقد والغيظ إلى أن يتجاهل علي بن الحسين بعد أن رأى التفاف الناس من حوله ، واحتشادهم نحوه ، واحتفالهم به ، وتعظيمهم له وقد ذكرناها في مكان سابق من هذا البحث عند ذكر المسند إليه .

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه ... والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

هذا ابنُ خير عباد الله كلّهم ... هذا التقيُّ النقي الطاهرُ العَلَم

هذا ابنُ فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

وفي كل مرة يذكر فيها المسند إليه هنا تراه يذكر اسم الإشارة الذي يميز الشيء المشار اليه أكمل تمييز ، ويحدده تحديدًا لا يمكن أن يختلط بغيره ، أو أن يشتبه به ، ومع كل اسم إشارة يذكر تذكر معه مجموعة من الفضائل ، والمناقب والمزايا الذي يتصف بها المشار إليه والتي تكاد تكون من خصائصه ، ولوازمه ، فإذا علمت أن هشامًا كان قد دفعه هذا الحقد إلى أن يتجاهل عليًا رضي الله عنه تأكد لديك أن الشاعر يدفع هذا التجاهل وينقضه بهذا السيل المتتابع من الإشارات المحددة والواضحة التي تعلن في قوة عن محامده التي لا تحصى وعن أمجاده التي لا تحصر ، وعن مناقبه التي تتخطى كل عدٍّ ، وتتفوق على كل تقدير وحساب ، وعن شخصيته التي لا تخفى على أحد إلا على جاهل غبي حقود .

فالذوق البلاغي ، وسياق الكلام يؤكدان في قوة أن التعبير بالإشارة هنا إنما هو للتعريض بغباوة السامع ، واسم الإشارة رغم أنه يدل على التحديد والتمييز بحكم دلالته اللغوية وأنه في هذا قاطع صارم ومن ثَمَّ قالوا إنه ليس من الألفاظ الشعرية المصورة والتي تتراءى فيها التوشية والألوان والظلال ، إلا أنه في هذا المقام عبر عن الموقف أصدق تعبير واحتواه أمثل احتواء إذ أشار إلى غباء هشام ، وأنه لا يدرك إلا بالإشارة الحسية للشيء بحيث لا يعرفه إلا إذا كان مميزًا واضحًا ، ومن ثَمَّ كان التعبير باسم الإشارة تعريضًا بغباوته وردًّا صارمًا على تجاهله لرجل هو أجل من أن يخفى على أحد .

ومن الأغراض التي تستدعي استعمال اسم الإشارة تعظيم المسند إليه أو تحقيره ، وذلك باستخدام الإشارة إلى القريب ، فمن تعظيم المسند إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩) فاستخدام أسلوب الإشارة للقريب هنا للدلالة على أن المشار إليه قريب من القلوب

والعيون وفي هذا القرب حب ، وقداسة ، وتعظيم فليس كالقرآن كتاب سماوي يطاوله في الهداية ، أو يفاضله في التوجيه ، فهو لائط بكل قلب متصل بكل نفس ، ممتزج بكل شعور ، ومن ثَمَّ فقلب المؤمن يفيض بالحب له عن إخلاص ، ويمتلئ بالإجلال له عن يقين ، ويتسابق إلى الاستجابة لما فيه عن طواعية فهو مهوى فؤاده ونجوى ضميره ، وموطن تقديسه ، ومحلُّ تقديره ، وموضع إعجابه ، ومن ثَمَّ كان التعبير باسم الإشارة الدال على القرب للدلالة على كل ما سبق ، فالشيء المحبوب دائمًا موضع القداسة ، وموطن الرجاء فهو مخالط للنفس ، وحاضر في الذهن ، ممتزج بالحس ، والشعور ، والوجدان ، فالقرب المكاني وسيلة من وسائل تعظيمه ، وطريق من طرق الاحتفال به .

على أن القرب المكاني كما يتوسل به إلى التعظيم فإنه يتوسل به أيضًا إلى التحقير وعلى هذا فإن الإشارة للقريب كما تكون أداة للمدح تكون أداة للذم ، والعبرة دائمًا بسياقات الكلام فهي التي تحدد المراد وتعلن عن المقصود ، وحين تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (العنكبوت:٦٤) فالتعبير عن المسند إليه باسم الإشارة للقريب إشارة رامزة إلى هوان الدنيا وإلى ضعة أمرها ، وحقارة شأنها ، وأنها لا تبقي ولا تستمر ، وإنما تتحول وتتغير ، وتمضي وتذهب ، فالتعلق بها تعلق ينسي الإنسان حق الله فيها ، ويشده إلى متعها ومغرياتها ومباهجها ، وزينتها على هذا النحو هو تعلق يقتل ، ويضر ولا ينفع . ومن ثَمَّ كان التعبير بالإشارة دليلا على هذا مما يئول الأمر إلى التحقير ، والتهوين ، إذ الشيء الحقير لا يتأبى على أحد ، ولا يمتنع على الناس ، بل يكون من السهل الوصول إليه ، فهو في متناول أيديهم ، وفي مطارح أنظارهم وبين أيديهم ، وأرجلهم ، فالقرب المكاني مناسب للتحقير على هذا الأساس .

واقرأ ما يحكيه القرآن عن أبي جهل ـ قبحه الله ـ في شأن الحبيب المصطفى ﷺ ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ (الأنبياء:٣٦) وأعد قراءة

هذه الفقرة مرة أخرى ، ولن يغيب عنك أنك ستطالع فيها روح الاستخفاف ، وهوان الشأن ، ودنو المنزلة ، ونبرة الإهانة على حد ما يزعم ـ قبحه الله ـ فاستخدام الإشارة هنا إنما دافعه التحقير ، تنزيلا لدنو المنزلة وضعة الشأن ، وانحطاط القدر منزلة القرب المكاني .

على أن الإشارة بالبعيد قد يتوسل بها للتعظيم كما يتوسل بها للتحقير أيضًا ، واقرأ قول الله تعالى في شأن القرآن العظيم حيث يقول ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) فالقرآن كتاب الله ، ومنار هدايته يهدي الضال ، ويرشد الغوى ، ويقوض صروح الظلم ، ويبدد دياجير الظلام ويفك خوانق الأغلال عن الرقاب ، ويزيح غواشي الغفلة عن العيون ويمزق أسدال الذل عن النفوس ، ويجمع الشمل الشتيت ، ويؤلف بالحب بين المتنافرين المتباغضين ، فهو واحة لقلب المؤمن يلتمس فيها أنس الراحة ، وبرد الطمأنينة ، وبهجة السرور ، ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فالإشارة (بذلك) إلى الكتاب وهو القرآن إشارة إلى كل تلك المعاني السابقة وهي جزء قليل مما حواه القرآن ، فالإشارة بـ (ذلك) وهو اسم إشارة للبعيد للقرآن مع أنه قريب من الحواس ، قريب من القلوب ، تدل الدلالة البالغة ، وتشير الإشارة الواضحة على تعظيم هذا الكتاب وتفخيمه ، والاهتمام به ، وذلك إنما يكون عن طريق تنزيل بعد مكانته في نفوس المؤمنين بعدًا لا يضاهيه في هذا البعد غيره منزلة بعد المكان ، ولما كان العظيم بحكم العادة لا يغشى مجامع الناس ، ولا يختلط بالسوقة والدهماء وإنما يتأبى على الجميع ، وينأى عنهم ويبتعد لعزته وكرامته وشرفه ورفعة شأنه عن اللصوق بهم والقرب منهم كان تعظيمه متوافقًا تمام التوافق ومتناسبًا كل التناسب مع البعد المكاني على هذا الحساب والتقدير .

وتجد الإشارة البعيدة التي تفيد البعد ، وعدم الدنو ، والتقديس ، والتعظيم في وصف الله للقرآن وفي التعظيم لآياته على نحو ما تجده في سورة القصص في قوله تعالى : ﴿ الٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (يوسف:١) وقوله تعالى

في سورة لقمان : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (لقمان:٢) وفي سورة النمل : ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:١) وإذا كنت تدير عقلاً واعيًا في القرآن الكريم فتراه قد حوى كل المحامد ، ودعا إلى كل الفضائل ، وصحح فاسد العقيدة ، وكان مصدر الشريعة ، ودستورها القائم أبد الدهر وجدد مسيرة الإنسانية في الحياة ، وواصل عطاءه الذي لا ينفد على كثرة ترديد النظر فيه ، وتقليب الفكر في آياته ، وأعطى كل يد امتدت إليه ما تطوله من موفور الثمر ، وكريم الجني فاعلم أن رفع القرآن إلى المنزلة العليا التي لا منزلة فوقها هي بعض حق القرآن ومن هذا القبيل ما حكاه الله عن امرأة العزيز في شأن يوسف عليه السلام قالت : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢) شاء الله ليوسف أن يباع بيع السماح وهو الحر الكريم وأن يستقر به المقام في بيت عزيز مصر بيت يفيض بالمسرة والبهجة عليه ، فانبعث القصر بوجوده فيه انبعاث الربيع الممرع ، وجاشت الحياة في أركانه ، ودبت في أوصاله ، وأشرق الأمل في جنباته وتولدت فيه معاني الجدّة ، والاستمرار ، والحركة وغدا روضة فينانة تتراقص على حواشيها الخضر عرائس المنى ، وتسبح في فيض رائق صاف من السحر ، والرونق والجمال

ولما كان الله يُعِدّ يوسف ليكون النبي المرسل والمختار المبعوث ، وأنبياء الله موضع بلائه ، وسر حكمته كان لابد أن يُجْهِدَه بالشدائد ، وأن يَفْدَحَهُ بالرزايا ، وأن يمتحنه بالبلايا ، وأن يصهره بالمحن والخطوب حتى يتخذ من الصبر عدة ، ومن الألم سلاحًا ، ومن البؤس في العيش رفقة ، ومن أغراض القدر وسهامه صحبة ، ومن غِيَرِ الدهر وكوارثه قوة ، فبعد أن بلغ أشده وتفجرت قوته ، وبهر جماله ، واستوى بناؤه وصار شابًا فتيًا يملأ العين بهاء والقلب إجلالاً ، والنفس سحرًا وفتنة ، اختلج قلب امرأة العزيز بالحب له اختلاجًا قويًا ، واضطرمت حناياها بالرغبة فيه اضطرامًا عنيفًا ، واعتلجت قرارة

أعماقها بالميل إليه اعتلاجًا شديدًا وعجزت عن أن تسكت نداء العزيزة الصارخ في داخلها ، ولم تَقْدِرْ على أن تطفئ هذا اللهيب المشتعل في حناياها ، ولم تستطع أن تكظم الرغبة في نفسها فباحت بها للفتى في صراحة وجراءة ، ووقاحة ، وألقت سلاحها بعد أن عجزت عن أية مقاومة فاستعصم وقاوم رغبتها العنيفة ، وكانت قد همت به وجرى نحو الباب وجرت وراءه وهناك ألفيا سيدها عنده وحدث ما حدث وتيقن العزيز من براءة يوسف وطلب منه أن يُعْرِض عن الخوض في هذا الموضوع وطلب من زوجته أن تستغفر من ذنبها وأن تتوب ، ولكن أبيات العِلْية لا تحتفظ بسر ، ولا تتكتَّم على خبر ، ولا تمسك عن حديث فشاع الأمر بين زوجات الأمراء واتخذت منه مادة للسَّمر وللهو وللسخرية والعبث والضَّحِك وقلن القول الذي سجله القرآن : ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٣٠) لذا فطنت سيدة القصر إلى الأمر فلجأت إلى الحيلة ، ووجهت الدعوة إليهن جميعًا وأعدت لهن مائدة عليها أطايب الطعام ، وبينما هن يأكلن أمرت فتاها أن يخرج عليهن فلما رأينه رأين بدرًا يتألق في كبد السماء ، ورأين نورًا يسطع فيملأ كل مكان فبهرهن هذا الجمال ، وصرعهن هذا الحسن ، وخبلهن هذا الضياء فقطَّعت السكاكين أيديهن وهتفن جميعًا ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم وهنا استثمرت المرأة الموقف استثمارًا جيدًا ، وأشارت إلى يوسف وقالت مقالتها التي رصدها القرآن : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ (يوسف:٣٢) فلم تشر إليه إشارة القريب لم تقل هذا الذي مع أنه كان حاضرًا مشاهدًا قريبًا مرئيًا إلى جوارها ، وفي مواجهتها ، إنها لم تستطع أن تتخلى عن إعجابها به ، ولم تستطع أن تخفي شعورها نحوه ، ولم تملك إلا أن توافي نفسها بكل مناها ، وأن تبلغ بمطالب الصبوة غاية مداها وهي في كل ذلك لا تنسى أن من أسرها جماله ، ومن صرعها سحره ، عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عالي المنزلة ، كريم النفس ، ماجد نبيل شريف ، فأشارت إليه بالبعيد

تنزيلا لبعد درجته ، وسمو مكانته منزلة بعد المسافة ولإظهار مدى حسنه ، وروعة منظره ، وكمال سموه ، واتخاذها من كل ذلك سبيلا تلتمس من ورائه الأعذار لفتنتها به ، وغرامها بجماله ، وولهها بحبه ، وعشقها له .

فالإشارة هنا دالة ومعبِّرة وكأنها تقول لهن وهي تشير إليه لقد رأيْتُنَّه مرة واحدة فصنع بكن بهاؤه هذا الذي صنع ، وفعل بكن سِحْره هذا الذي فعل فكيف بمن يظلها وإياه سقف واحد ، ويجمعها وإياه بيت واحد ، ويغلق عليها معه باب واحد ويشتد حبه على حناياها اشتداد الوثاق على القلب الوجيع ، ويضغط عليه بعنف وبغير رحمة ولا شفقة فلا تستطيع منه فكاكًا ، ولا تملك من قيده هربًا ومما يضاعف من قسوة العبء ، ورهق الإحساس أنه دائمًا إلى جوارها ، وفي بيتها ، ومجال نظرها تُغْلق عينيها على صورته حين تنام ، وتكتحل برؤيته حين تستيقظ يطالعها شمسًا في صباحها ويشرق عليها بدرًا في مسائها يراوحها ، ويغاديها ، ويصبحها ويمسيها وتظل معه سحابة نهارها ، ويدفئ مسكنها طيلة ليلها فكيف تلام إن اشتد حنينها إليه ، وكثر ولهها عليه ، وطغت رغبتها فيه ؟ وقد اجتمع عليها نار الصبابة ، وألم الوجد ، ولهيب الحرمان ، إنها بالإشارة الرامزة إلى كل تلك المعاني تضعهن في مكان من يرثي لها ، ويتألم لحالها ، ويشفق عليها ، ويلتمس الأعذار لموقفها ويرق لضعفها ، ويحنو ويلين ، ويعطف ويعفو ، ويصفح ، ويغفر .

إننا لابد أن نفهم السر البلاغي من خلال سياقه ، وأن ندور معه في المجال الذي يتحرك فيه ويلقي بألقه وضيائه عليه إنه من الظلم للبلاغة أن تبتر الصورة بترًا ، وأن تقتطعها اقتطاعًا ، وأن تدرسها في هذا النطاق الضيق الخانق فتغدو وكأنها شاهد نحوي يحتج للقاعدة ، ويبرهن على صحة الإعراب .

إن البلاغة هي اختيار أحسن البدائل لجمال الأسلوب ، وإشراقه ، واستوائه ، وفهم ما يشع به الكلام من معنى التعظيم في استعمال الإشارة للبعيد أو للقريب أو لعكس التعظيم كالتحقير ؛ لأن هذا إنما يخضع لسياق الكلام

فهو الذي يحدِّد في الأسلوب فهمًا معينًا ما دامت قد صاغته أيد بصيرة بمواقع الكلم الطيب ، وألهم إياه ذوق سليم الإدراك يعرف جمال اللغة ، ويفطن لعمقها ، وخصوبتها ، وبذلك تتحقق روعة البلاغة ، التي تشيع البهجة في النفس ، والمتعة في القلب حينما تراها تعطيك في الشيء الواحد القرب أو البعد أكثر من لون ، وتحقق أكثر من طعم حتى تسبح معها في جو سماوي حالم ، وتشعر معها أن وجودك الخاوي قد امتلأ ، وقلبك الصادي قد ارتوى ، بعد أن تذوقت ما فيها من عبقرية ، وجلالة ، وسمو ، ونفحتك بعبيرها الفواح ، وأسكرتك بنسيمها المعطر الأريج ، وراقتك بروائها الملهم البهيج ولقد سبق أن رأيت أن قول الشاعر :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

يصح أن يكون شاهدًا للتعريض بغباوة السامع حين نرى ما للإشارة هنا من شدة تأثير ، وقوة نفاذ ، فهي تحدد المشار إليه ، وتميزه أكمل تمييز ، وتضعه في دائرة محددة بحيث لا يشتبه بغيره ، أو يختلط ويلتبس بسواه ، ومن ثَمَّ فهي تؤكد ذيوعه ، واشتهاره ، وعدم خفائه ، وأنه لا أحد يستطيع أن يتجاهل هذا أو أن يماري فيه .

كما يصح أن تلمح به تعظيمًا للمشار إليه فيكون البعد فيه بعدًا للمكانة ، وللمنزلة والدرجة فالبعد هنا ناظر إلى هذه المعاني كلها التي لا يمكن أن يرتقي لها ، وأن يرتفع إلى مستواها ، أو أن يحوم حول حماها أمثال جرير فيأتي بآباء له على نحو هذا المثال .

وعلى أساس من هذا تستطيع أن تطوّع الكلام لتفهم منه ما تريد ما دامت تتسع له لغة العرب ، ولا تضيق بأمثاله . فلغة القرآن والوحي تسعف ببيانها الذي يتجدد على الدهر ويزهو على طول الزمن بهذه النفحات القدسية التي تترجم في صدق عن الضمائر والمشاعر .

ومن استخدام الإشارة التي للبعيد للتحقير والضعة وحقارة النفس وفجورها ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون:١-٣) أرأيت إلى هذا الاستفهام الذي يساق في جو من التهويل ، والترويع ، والتفخيم ، والتضخيم والذي يوقع في القلب وفي الشعور الإحساس ، بالكراهية ، والبغض ، والاستهوال ، والاستعظام لهذا الذي شخصت صورته أمامك ، وتحددت ملامحها الغليظة ، وسماتها الجافة ، وشخصيتها المتهجمة الجاسية وقلبها القاسي ، وطبعها الغليظ فكذب بالدين ، وكانت مظاهر هذا التكذيب تظهر فيما تظهر في دَعِّه لليتم ، وعدم حضه على طعام المسكين .

والدين : هو يوم الدِّيْنُونة اليوم الذي يدان فيه المرء ، ويحاسب على ما جنت يداه ، ويحق عليه ما يستحقه إحقاقًا للعدل الإلهي ، وتحقيقًا للجزاء على الخير والشر وانظر إلى الإشارة هنا في قوله ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ تجدها تحقق غاية البعد في الحقارة والوضاعة ، والدنو واللؤم والاستخفاف وماذا ينتظر لرجل هذا حقيقة أمره إلا أن يوسم بهذا الميسم ، ويطبع بهذا الطابع ، ويوصف بالهوان والدونية ؟.

وانظر إلى قوله : ﴿ يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ والدَّعُّ فيه دفع بعنف ، وبغلظة ، وقسوة ونهر والدع على هذا النحو لمن ؟ لليتيم ومن اليتيم ؟ الذي فقد الأب ، وغاب عنه العائل ، وحُرِم البر ، والرحمة ، والحنو والعطف وتداعت عليه الأحزان ، وتفجرت عليه مصائب اليُتْم فغدا يستمطر ماء الشئون ، ودماء القلوب . وبدلا من أن يكون له القلب الذي يخفق ، والفؤاد الذي يعطف ، واليد التي تساعد ، واللسان الذي يرق ، والصدر الذي يدفئ ، والأحاسيس التي تواسي ، والسند الذي يقوي ، والعين التي ترعى وتكلأ بدلا من أن يكون كل هذا كان هو الذي يدعه وينهره وينزل عليه كالوباء الذي يعصف بكيانه ، ويزلزل أركان وجوده

فيضاعف من شدة مأساته ، ويكاثر من فواجعه وأهواله ، ويجعله يعاني من آثار الذل ، ويقاسي من كوارث اليتم .

من أجل ذلك استحق أن يكون على رأس من يكذب بيوم الدين ، وأن يصل إلى مدى في التحقير ليس له من نهاية ، وليس يخفى أن دلالة البعد الإشاري على الإبعاد في التحقير نابعة ، من تقمُّؤ العين للحقير ، وتنقُّصِ مكانته ، وازْدِرَاء قدْره ، وإعراض الخاطب عنه ، ونفرة النفس منه ووحشيتها بسببه ، ومن ثَمَّ كان بين البعد المكاني والتحقير نسبًا موصولاً ، وسببًا جامعًا ، ورحمًا قوية .

وقد يعرف المسند إليه بالإشارة لبيان أحقيته بصفات مذكورة بعده هو لها أهل وبها جدير ، فالمسند إليه وهو اسم الإشارة قد سبق بصفات تجمعت فيه على نحو كامل واف ، ثم جاء هو ومن وراءه كانت تلك الصفات التي استحقها عن جدارة بها ، وعن أهلية لها واقرأ قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:٣-٥) فقد وصف الله المؤمنين بأنهم أولئك الذين يؤمنون بالله من غير طلب لبرهان ، ومن غير إلحاح على دليل ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وبأنهم الذين يقيمون الصلاة إقامة كاملة على خير وجه ، وعلى أحسن ما يكون ، وهم يؤدون الزكاة ويرون في أدائها العماد القوي لبناء الأمة ، والطبيب المواسي لأمراض الفقر والفاقة والحرمان ، ثم هم من بعد أداء الزكاة يجعلون في أموالهم حقًا ينفقونه على من أعيته الحيلة ، وركبه الهم والمرض والدَّيْن ، وغاص في أعماق العُدْم ، وتمرَّغ في أوحال العِوَز ، وصار طريدًا من طرائد الشقاء ، وفريسة من فرائس الإملاق والهوان ثم بين أن قوى الخير في ذواتهم متأصلة ، وأن معادن نفوسهم خيرة نفيسة فهي موصولة بروابط الإيمان والدين مع من آمن قبلها ومع ما أنزل عليه ، كما أنها مصدقة بالكتاب الذي

نزل على رسولها وحبيبها محمد ، وهكذا هيأهم هذا كله وأعدهم إعدادًا قويًا لأن يكونوا مستحقين عن جدارة لما وقع بعد اسم الإشارة .

ومما ورد اسم الإشارة على هذا النحو مفيداً أن ما وقع بعده من صفات المشار إليه حقيق به وجدير ما تجده في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة:٢٧) فأنت أمام آية كريمة ذكرت أوصافًا لقوم معينين وأن هذه الصفات قد رشحتهم للمكانة الخاسرة التي وردت بعد اسم الإشارة فنقضهم لعهد الله بعد توثيقه ، وإخلافهم للوعد بعد إبرامه وقطعهم للوشائج التي يجب أن توصل ، وتمزيقهم لما أمر الله أن يبقى متلاحمًا متماسكًا مترابطًا رشحهم لأن يكونوا الخاسرين ، وجاء اسم الإشارة ليفيد أن القوم وصفوا بالصفات التي سبقته استوجبوا بتلك الأوصاف أن يتحقق لهم الجزاء الذي جاء من بعده ، ووقع من خلفه ومن شواهد ذلك قول عروة ابن الورد[(١)] :

لحا الله صعلوكا إذا جَنّ ليلُه ... مصافي المشاش آلفا كل مَجْزر
ينام ثقيلا لم يُصْبحُ قاعدًا ... يَحُتُّ الحَصَى عن جَنْبِه المتَعَفِّر
يعين نساء الحي ما يَسْتَعِنَّهُ ... فَيُضحي طَلِيحًا كالبعِيرِ المُحَسَّر
ولكن صُعْلوكا صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كضَوْءِ سِرَاجِ القَابِس المتَنَوِّر
مُطِلاًّ عَلَى أَعْدَائِه يَزجُرُونه ... بِسَاحَتِهِم زجْر المنِيحِ المُشَهَّر
وإن بَعُدُوا لا يأمنُوا اقْتِرَابه ... تَشَوُّفَ أهْلِ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إن يلْقَ المَنِيةِ يَلْقَها ... حَمِيدا وإن يستغْنِ يَوْمًا فاجْدَر

ولحا : بمعنى لام ، والصعاليك : ذؤبان العرب وفتاكها وهم طرائد البؤس وضحايا الفاقة ، وصرعى الفقر والمراد هنا الفقير ، والمشاش : جمع مشاشة

(١) التلخيص في علوم البلاغة ص٦٣ بشرح البرقوقي .

وهي رءوس المفاصل مِثل الركبتين وفي إضافة مصافي إلى المشاش تهكم لاذع ، والمجزر : موضع جزر الإبل ، والمتعفر : المتترب ، والطليح : البعير الهزيل ، والمحسر : أي واقع في الحسرة من إعيائه ونهره وضعفه ، والمنيح المشهر : أي العطاء البالغ في الشهرة حدًا كبيرًا ، تشوف : انتظر وتطلع وأمل ، وفي قوله : وإن بعدوا إلخ ، على التقديم والتأخير أراد لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا .

والشاعر هنا يقارن بين صعلوكين من خلال التناسق الفني في الصورة التي تجمع بين الصعلوك الخامل ، الهين ، المُستَخَفُّ به ، وبين الصعلوك الماجد ، الكريم ، الفاتك ، والصورة تتسع لكل هذا وتقابل بين الألوان والعناصر لتضفي صفات الغثاثة والبرود والإهمال والاستخفاف والهوان على الصعلوك الأول ولتضفي صفات البطولة ، والإقدام ، والبسالة والإشراق ، والمجد ، والشرف على الثاني من أجل أن تصفه بما يستحقه مما يأتي بعد اسم الإشارة ، فإذا كان الأول موضع اللوم ، والتهكم ، والسخرية إذْ لا يصطفي إلا المشاش ولا يفضل غير الركبتين ورءوس المفاصل قاعد الهمة متقاعس لصيق بالتراب ، يعين نساء الحي لا بلاء له كالبعير الهزيل الذي يعاني ألم الحسرة والضعف ، والهزال . فإن الثاني مشرق الوجه ، كأنه الشمس ضياء ، أو القبس نورًا وألقا ، باسل ، ماجد ، يغشى المواقع ، وينازل الأعداء ، ويشل حركتهم ، ولا يأمنون مباغتته لهم ، وهجومه عليهم ، وإن بعدوا عنه وإنما يتشوفونه ويترقبونه ويتوقعونه هجومه .

وبعد ذكر هذه الأوصاف جاء اسم الإشارة ليبين أن المشار إليه جدير بما يأتي بعدها وعلى هذا النحو ما تجده في قول حاتم الطائي في شأن صعلوك آخر[1] .

---

(١) بغية الإيضاح ٩٢/١ ، ٩٣ .

ولله صُـــعلوكٌ يســـاورُ هـــمّهُ ويـمضي على الأحداث والدهرُ مُقْدِمَا
فتى طَلِبَاتٍ لا يرى الخمــص ترحــةً ولا شــبعةً إن نالـــها عَـدَّ مَغْنَمَــا
إذا ما رأى يومًــا مكــارم أعرضَــتْ تــيمَّمَ كـــبراهُن ثُمَّــتَ صَـــمَّمَا
يــرى رمـــحه ونبلـــه ومـــجنه وذا شُطَب عضب الضـريبة مُخَـذَمَا
وأحنـــاء ســـرج قـــاتر ولجامَـــه عتاد آخي هَيْجـا وطرْفـا مُسـوّمَا
فـذلك إن يهلـــك فحســـنى ثنــاؤهُ وإن عاش لـم يقعد ضعيفًا مذمـــمًّا

فتى طلباتي : أي صاحب حاجات وأهداف لا تنقضي عند الشبع ، يساور : يوثب ، الخُمْص : الجوع ، الترحة : الحزن ، أعْرضَت بمعنى ظهرت ، المجن : الترس ، وشطب السيف : الخطوط في متنه ، وضريبته : حده ، والعضب : بمعنى القاطع ، والخذم : الذي يقطع في سرعة سريعة ، وأحناء السرج : جمع حنو وهو اسم لكل من قربوسيه المقدم والمؤخر ، والقاتر هنا بمعنى : الجيد الوقوع على الظهر ، وعتاد بمعنى : عدة ، وهيجا بمعنى : الحرب ، والطرف بمعنى : الجواد الكريم الأصل ، والمسموم : الذي يرسل ليرعى أو ليغير فهو مدرب معلم أبي ويرى طِرْفًا مسومًا كذلك ، والحسنى مصدر كالبشرى أو اسم للإحسان .

الشاعر هنا يفسح مجالا للحديث عن صعلوك ويفيض في وصفه بصفات الكمال التي يعلو بها ، ويستعز ، ويستطيل ، ويبدأ حديثه عنه فيبين أنه صاحب همة عالية ، وعزيمة ماضية صارمة وأن هذه الهمة تدفعه إلى أن يخوض بها بحار الدم ، وأن يمضي في مجاهدة لا يهدأ لها ضجيج ، ولا ينطفئ لها لهيب تستعلي على هوج العواصف ، ورحى الحرب ، ورهج السيوف ، وأنه ينازل الدهر ، ويصارع الأيام في تجبر شامخ وفي جلاد عنيف عنيد فلا تلين له قناة ، ولا يخبو له عزم ، ولا يتوقف له مضاء ، ولا يني له سير وأنه فتى طلبات فهو ينطلق إلى غاية يعرف طريقها ، وإلى هدف يطلبه فلا يضل عن سبيل تحقيقه

يغشى المخاطر ، ويقارع الأهوال إذ ليس قاصر الهمة يرى أن مطالبه لا تنتهي عند حد فلا تعبأ بالمخمصة والجوع ، ولا تفرح بإشباع البطن والري من ظمأ بل إن همته فوق السحاب ، فلا يحزنه الجوع ولا يعد الأكلة يأكلها غنيمة وكسبًا كما يعد ذلك غيره من الهَمَل الفارغين القاصرين ثم إنه لا يعمد إلا إلى كبرى المكارم يحققها ولا يقصد إلا إلى ما هو في هذا المستوى العالي الرفيع .

فإذا لاح له ، واعترض طريقه وظهر له ما هو أقل من هذا أعرض عنه ، وأعطاه ظهره ، إذ هو يسعى لامتلاك ناصية المجد المقدس ، واقتناص جبهة السيادة العالية ، وينفر ليحقق الشرف الغالي الذي يملأ المسامع ، ويعمر الدنيا ويضمن له الخلود حتى لا يغوص في لجج النسيان ، أو تطويه بحار العدم وينتهي ذكره وينقضي الحديث عنه .

إن صاحبنا يريد أن يبقى حديثًا باهرًا في فم الزمان وأن يملأ الدنيا وأن يشغل الناس ذلك ما يهمه ، ويستبد به ، ويستولي على كل كيانه إذ هو يستشعر في أعماقه معاني السيادة تمور مورانًا ، وتغلي غليانًا وتفور فورانًا ، ولذا يجمع عزمه الأبي القوي الذي يمثل كبرياءه ، وجبروته لإنفاد ما يريد في قوة وعنفوان وجبروت إنه يعيش كما يعيش السادة قوى الشوكة ، عزيز الجانب ، فهو يصحب سلاحه ، رمحه ، ونبله ، ومجنه ، وسيفه ذا الشطب والخطوط وسرج فرسه المتمكن من ظهره ، وجواده المدرب الذي يعرف طريقه إلى الإغارة ثم يخلص إلى اسم الإشارة ليبين أن المشار إليه صاحب هذه الصفات كلها يستحق ما يأتي بعد الإشارة من أن يكون طيب الأحدوثة ، حسن الذكر إن مات ، وأن يكون عالي الهمة ، ماجدًا نبيلا إن حيي وعاش .

ويقول الخطيب القزويني في شأن هذه الأبيات بعد أن ذكرها على النحو السابق : (فعد له كما ترى خصالاً فاضلة من المضاء على الأحداث مقدمًا ، والصبر على ألم الجوع ، والأنفة من عد الشبعة مغنمًا ، ويتمم كبرى

المكرمات ، والتأهب للحدب بأدواتها ثم عقب ذلك بقوله ـ فذلك ـ فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده)[1].

وهذا الأسلوب تراه في القرآن الكريم كثيراً على نحو ما سبق وعلى نحو ما تجده في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:١٥) فقد ذكر لهم هذه الصفات من الإيمان بالله ورسوله وعدم الريبة ثم الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وجاء اسم الإشارة (أولئك) ليبين أن الصفات السابقة كانت السبب وراء استحقاق المشار إليه ما جاء بعده ولاحظ أن القصر الذي استهلت به الآية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحجرات:١٥) والذي ختمت به وجاء عن طريق تعريف الطرفين في قوله سبحانه : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ قد أكدا معًا منزلة هذا النموذج المؤمن ، وبينا معًا شرف هؤلاء ، ولفت الأنظار إليهم للاقتداء بعملهم ، وتمثلهم في سلوكهم ، واتخاذهم أسوة ومثالاً .

وكثيراً ما نجد اسم الإشارة يأتي مسندًا إليه لداع يدعو إليه المقام ولغرض من أغراضه وذلك كما في تجسيد المعنويات على نحو ما تجده في قول المنكرين للبعث الذي حكاه القرآن في سورة (المؤمنون) في قوله : ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٨٢،٨٣) فالبعث أمر معنوي وقد أشاروا إليه بقولهم : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ والإشارة دالة على أن هؤلاء المخرفين يقصدون قصدًا إلى أن يعلنوا ويبينوا أن الذي وعدوه هو هذا الذي كأنه ماثل أمامهم يحددونه ويميزونه ، ويضعون له الشيات والملامح ، والقسمات فهو شائع ذائع يعرفونه كما قد عرفه آباؤهم

---

(١) بغية الإيضاح ٩٣/١ .

وينظرون إليه فلا يغيب شيء منه عنهم ، ومع هذا فهم يرفضونه ولا يقبلون به ، ويجحدونه وينكرونه ، رفضًا وإنكارًا كرفض وإنكار آبائهم وانظر إلى التكرار في الإشارة ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وما يفيده من زيادة التقرير والإيضاح من كونه في زعمهم ليس إلا أساطير الأولين ، وهم إنما وصلوا لهذا الحكم الذي قرروه بعد أن أوهموا أن بحثهم المردّد المكررّ ، ونظرهم الموصول الدائم قد انتهيا بهم إلى رفضه فرفضه إنما كان بعد التأمل والاستقصاء والنظر وتمييزه وتحديده وإبرازة .

وعلى هذا النحو ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (فصلت:٢٣) انظر إلى هذا الظن الذي ظنوه ، والوهم الذي توهموه لترى كيف أرداهم وأنزل الخسارة بهم ، وأورثهم الذل والخزي والعار ثم تأمل هذه الإشارة الدالة في قوله (ذلكم) وقد شخصت الظن ، وجسمته ، وحددته ، وأبرزته وجعلته في مجال الرؤية بالعين فأشير إليه على هذا النحو المثير واللافت وقد تدير نظرك فيه فتراه يرمز إلى نوع من أنواع التهكم ، ولون من ألوان الهزء ، والسخرية ، يطبع هؤلاء الظانين بالله ظن السوء بطابعه وكأن دلالة معبرة تنبعث من خلاله تقول : انظروا إلى ظنكم الذي ظننتموه هاأنتم أولاء ترونه أمام أعينكم ماثلا شاخصًا ، ثم ترونه هو بنفسه يرديكم ، ويلحق الخسران بكم ، ويجعلكم تتردون في مهاوي جهنم خالدين فيها وبئس القرار ، ومن هذا الوادي ما تجده في قوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور:٤٤) .

إن في خلق السماوات والأرض وتقليبه لليل والنهار لآية تستولي على من له قلب وتجري في وجدان من له شعور وحس ، لأنها تعلن عن القوة الخارقة التي تكون من وراء هذا ، والتي تسوي كل شيء في براعة وجبروت وقدرة وإبداع فتملأ الخيال بالتأمل الحالم ، والذهن بالتفكير الرفيع ، والقلب بالعبرة الحية الموقظة . فتقليب الله الليل والنهار على هذا النحو الذي لا تخطئه عين ،

ولا يغيب عن حس يوصل إلى العبرة التي تعتبر بها ، ويريك إياها على نحو شاخص ظاهر واضح حين يشير إليها تلك الإشارة اليقظى التي تهتف بك أن تتحرر من أوضار أية جاهلية توثق العقْل ، وتحصر الفكر وأن تتخلص من كل مادية ترهق الجسد ، وتوبق الروح حتى تتهيأ كل قواك لترى إشراقة الله في عالمه ، فتستشرف كون الله الواسع الذي يبعث الإبهار في نفسك ، ويثير الإعجاب في شعورك ، بعد أن أبصرت آيات الله فيه ورأيتها بعيني رأسك .

وهكذا تجد اسم الإشارة هنا قد أبرز الأمر المعنوي في صورة محسوسة تستحث وعيك ، وتحرك وجدانك على نحو فاعل ومؤثر .

ففي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وفي تصريف الريح والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، هذا وغيره مما يأخذ بمدارك الحس إعلان عن القوة الخارقة التي تدعو إلى أخذ العبرة من قدرة الله الصانع وأثرها في صنعته بما لا يملك صاحب اللب إلا أن يهتف من أعماقه سبْحان الذي أحسن كل شيء صُنعاً .

وتقرأ قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ (الرعد:٣٥) وقوله تعالى حكاية عما قال يوسف عليه السلام للفتيين اللذين دخلا معه السجن : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٣٧) ففي هاتين الآيتين تجد أن المشار إليه غائب غير حاضر وقد وضعته الآيتان في موضع الحاضر المشاهد وأشير إليه على هذا النحو الظاهر الواضح .

* * *

تعريف المسند إليه باللام

وأما تعريف المسند إليه باللام فإما أن يكون ذلك للإشارة بينك وبين مخاطبك إلى معهود معروف وتسمى اللام هنا لام العهد الخارجي كما إذا قال لك قائل : جاءني رجل من قبيلة كذا ، فتقول له ، ما فعل الرجل ؟ ومن هذا القبيل ما تجده في قول الله تعالى حكاية عن لسان أم مريم : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) أي وليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبت لها فالأنثى التي وهبت أرفع منزلة ، وأعلى قدرًا من الذكر الذي طلبته .

والمعروف أن امرأة عمران كانت قد نذرت لله ما في بطنها محررًا وكانت تتمنى أن يكون ذكرًا حتى يقوم على خدمة الهيكل إذ إن خدمته كانت قاصرة على الذكور لا تتخطاها إلى الإناث فلما رزقت أنثى قالت في حزن : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ فلفظ (الذكر) في الجملة الاعتراضية في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ مسند إليه وقد عرف باللام للإشارة بها إلى معهود خارجي عهدًا كنائيًا لتقدم ذكره كناية في قول أم مريم السابق .

كما أن المسند إليه قد يعرف باللام للإشارة بها إلى معهود خارجي صريحي لا كنائي ، وتسمى اللام حينئذ لام العهد الخارجي الصريحي ، واقرأ قول الله تعالى في سورة النار : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ (النور:٣٥) فإنك تجد لفظي (المصباح والزجاجة) مسندًا إليه وقد عرف كل منهما باللام وهي لام العهد الخارجي ولما كان المعهود بها قد تقدم ذكره صراحة في قوله تعالى : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ سميت اللام هنا بلام العهد الخارجي الصريحي ، ومثل هذا تجده في قوله

تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ (المزمل:١٥،١٦) فتعريف الرسول باللام للعهد الخارجي الصريحي ، لأن المعهود قد سبق ذكره صريحًا ومثل هذا قولهم : (صنعت في رجل جميلا فلم يحفظ الرجل هذا الجميل) وقد تكون اللام للعهد الخارجي من غير أن يتقدمها ذكر للمعهود لا صراحة ولا كناية ولكن للمخاطب به علم وعهد كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح:١٨) فهذه الشجرة لم تذكر في الآية على نحو مَّا لا ذكرًا صريحًا ولا ذكرًا كنائيًا ، ولكن هذه الشجرة معهودة لصحابة رسول الله عهدًا علميًا إذ هي الشجرة التي سميت بشجرة الرضوان ، والذي بايع فيها رسول الله صحابته تحتها يوم الحديبية بيعة الموت ، فتعريف الشجرة هنا باللام للعهد الخارجي العلمي ، فلام العهد الخارجي لها صور ثلاثة : لام العهد الخارجي الكنائي ، لام العهد الخارجي الصريحي ، لام العهد الخارجي العلمي .

وقد يعرف المسند إليه باللام للإشارة بها إلى الحقيقة فيكون مدخولها موضوعًا للحقيقة والماهية ، وتسمى اللام حينئذ لام الحقيقة أو لام الجنس ، وهذه اللام على هذا النحو قد يكون مدخولها مرادًا به الحقيقة نفسها من غير نظر إلى ما يندرج تحتها من أفراد كقولهم : الرجل خير من المرأة أي هذه الحقيقة أفضل من هذه الحقيقة من غير اعتبار للأفراد التي تندرج تحت هذه الحقيقة ، فقد يكون هناك من أفراد النساء من هو أفضل من أفراد الرجال ، فبعض أفراد حقيقة المرأة كعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أفضل من بعض أفراد حقيقة الرجل ، وتجد الأساس في المفاضلة قائمًا في الأساس على الحقيقة وليس الأفراد ، فحقيقة الرجل أفضل من حقيقة المرأة إذا قطعنا النظر وصرفناه عن الأفراد .

ومن هذا الوادي ما تجده في قولهم : أهلك الناس الدرهم والدينار ، فالحكم منصرف إلى جنس هذين النقدين لا إلى نقد بعينه ومن هذا قول الشاعر :

والخِلُّ كالماءِ يُبْدي لي ضمائرَهُ مع الصفاء ويُخفيها مع الكَدَرِ

فالخليل إنما يفصح عن خبيئته ، ويكشف عن دخائله ويبرز ما يتردد في صدره وما يعتمل في جواه إذا صافى خليله الود لكنه يحجب ما في أطوائه ، ويخفي ما في أعماقه ، ولا يبرز مكنونه إذا كانت نفسه غائمة مكدرة لا صحو فيها ، ولا إشراق ، فهو كالماء تستشف ما تحته إذا كان صافيًا ويغيّب عنك إذا كان مكدرًا ، فالحكم منصرف في التشبيه إلى حقيقتي الخل والماء لا على خل بعينه ولا على ماء بعينه ، وتجد على هذا النحو من غير باب المسند إليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء:٣٠) فالمراد حقيقة الماء وليس ماء معيَّنًا .

كما أن لام الجنس قد يكون المراد بها فردًا مبهمًا غير معين وتسمى هذه اللام لام العهد الذهني كقولك لزميلك : صل في المسجد فأنت لا تريد مسجدًا معينًا وإنما تريد منه أن يصلي في مسجد ما ،أي مسجد من مساجد المسلمين، وتجد هذا في قوله تعالى حكاية عن قول يعقوب عليه السلام : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ (يوسف:١٣) فليس المراد حقيقة الذئب، لأن الحقيقة من حيث ذاتها أمر لا وجود له خارجًا حتى يتحقق منها أكل أو شرب ، وإما يتأتى ذلك من أفراد هذه الحقيقة وليس المقصود ذئبًا معينًا إذ لا عهد ليعقوب عليه السلام بذئب معين ومن ثَمَّ يتعين أن يكون المراد فردًا ما مبهمًا غير معين من أفراد هذه الحقيقة ، ومن هذا النحو ما تجده في قول الشاعر :

ولقد أمرُّ على اللئيم يسُبُّني فمضَيْتُ ثَمَّتَ قلتُ لا يَعْنِيني

فهو واسع الصدر يعفو عن الإساءة ، ويغض الطرف عنها فلا تنال منه سقطة اللئيم ، ولا يعيرها اهتمامًا أو يعطيها بالاً فإذا سمع السباب من لئيم فإنه

يتجاهله ، ويصدف عنه واضعًا في اعتباره أن اللئيم لا يقصده وجملة (يسبني) صفة للئيم وليس حالاً ، لأن الشاعر لم يرد لئيمًا معينًا وإنما أراد أن يمر على أي لئيم يسبه فيمضي في طريقه متجاهلاً سبه وشتائمه ، والشاهد كما لا يخفى عليك في لفظ (اللئيم) وليس المراد حقيقته ، لأن الحقيقة لا وجود لها فيستحيل المرور على ما لا وجود له خارج الأعيان ، ولا فردًا معينًا ، لأنه لا عهد له به فتعين أن يكون المراد فردًا غير معين من أفراد الحقيقة .

كما أن لام الجنس قد يكون المراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجة تحت الحقيقة عند قيام القرينة (وتسمى لام الاستغراق) لأن المراد بها جميع الأفراد وهي قسمان لام الاستغراق الحقيقي ولام الاستغراق العرفي .

فالاستغراق الحقيقي : ما يكون المراد من الكلمة جميع الأفراد الداخلين تحت معناها اللغوي كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ (العصر:١،٢) فإن المراد جميع الأفراد الذي يتناولها لفظ إنسان بحسب دلالته اللغوية ، وكما نجده في قوله تعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ (الرعد:٩) في غير المسند إليه أي كل غيب وشهادة أو قولك في المسند إليه (الغيب يعلمه الله) فإن القصد إلى جميع الغيوب الذي يتناولها لفظ الغيب ، ويصدق عليها بحسب الوضع أي كل أفراد الغيب لا تخفى على الله لأن الله يستحيل عليه سبحانه أن يعرف بعض الغيوب دون بعضها .

والاستغراق العرفي : أن يكون المراد به جميع الأفراد لا بحسب ما يتناوله اللفظ في الدلالة اللغوية ، ولكن بحسب ما يتناوله في العرف والعادة كما في قولك : جمع المدرس الطلاب ، فإن المراد من الطلاب جميع الأفراد لا بحسب الوضع اللغوي حتى يشمل اللفظ جميع طلاب الدنيا ولكن بحسب المفهوم من العرف وهو طلاب المدرسة التي يدرس بها هذا المدرس ، ويجب أن يفهم أن المعرف باللام المراد بها فرد مبهم يشبه النكرة من جهة المعنى ، ويشبه المعرفة من جهة اللفظ ، أما شبهه بالنكرة فلأنه أريد به فرد غير معين ،

ولهذا يعامل معاملة النكرة فيوصف بالجملة كما توصف النكرة تمامًا بتمام كما في قول الشاعر السابق :

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

فإن جملة (يسبني) واقعة صفة للئيم ، لأنه في معنى النكرة إذ إن الشاعر لا يقصد لئيمًا معينًا ، فضلا عن أن تعيينه يتنافى مع التمدح بفضيلة الحلم ، فقد يحلم الإنسان مع شخص ولا يحلم مع آخر والحليم من يكون الحلم سجية فيه ، فهو كالنكرة في عدم تعين مدلولها أما شبهه بالمعروف ، فلأن أحكام المعارف تجري عليه ، فهو يقع مبتدأ تقول : الذئب يرقب فريسته ، ويكون صاحب حال ، تقول : رأيت الثعلب خارجًا من حقلك يطارد كلبًا ، ويقع موصوفًا بمعرفة : تقول : السوق الجيدة يؤمها الناس[1].

وعلى هذا تفهم أن (أل) إما أن تكون للعهد ، وإما أن تكون للجنس ، وأن التي للعهد إما أن تكون للعهد الكنائي ، أو للعهد الصريح ، أو للعهد العلمي الحضوري ، وأن (أل) التي للجنس والحقيقة إما أن تدل على الحقيقة من غير اعتبار الأفراد ، وإما أن تدل على فرد غير معين ، أو أفراد غير معينين كذلك ، وإما أن تدل على جميع الأفراد وهي التي لاستغراق سواء أكان استغراقًا حقيقة أو عرفًا ، فأل الاستغراقية إذن من أقسام (أل) الجنسية ، بقي أن أشير إلى شيء يتصل بأل التي تفيد الاستغراق وهو أن استغراق المفرد أعم وأشمل من استغراق الجمع ، فحينما تقول : لا رجال في الدار ، فأنت في هذه العبارة قد نفيت الجمع ، فالنفي هنا منصب عليه ، ومنصرف إليه لكنك في هذا النفي لم تنف المفرد ، ولم تنف المثنى فقد يكون في الدار رجل أو رجلان .

لكنك إذا قلت : لا رجل في الدار ، فهذا يعني أنه لا يوجد في الدار أحد ، فلا يوجد فيها اثنان ، ولا أكثر من ذلك يعني لا يوجد فيها مثنى ولا جمع إذ

---

(١) المنهاج الواضح صـ ٣٨ .

إن هذا القول ينفي جنس الرجال جميعًا فاستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ، ومثل ذلك النكرة لأن النكرة في سياق النفي أو النهي أو الاستفهام تفيد العموم أما المعرف باللام فإنه لا يطرد إلا مع (أل) الجنسية التي تدل على الاستغراق .

فالمعرف بأل يفيد العموم والشمول في حالة الجمع وحالة الإفراد معًا انظر إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣) وقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة:٩٣) .

فـ (أل) في الآيتين الكريمتين داخلة على الجمع ومع ذلك مستغرقة لجميع أفراد الجمع فيهما ، وعليه فلا يصح أن يقال هنا ما قيل هناك في النكرة إن استغراق الجمع لا يشمل استغراق المفرد أو المثنى ، فاستغراق المفرد أعم من استغراق الجمع في النكرة التي وقعت في سياق النفي أو النهي أو الاستفهام ، أما المعرف بـ (أل) فالجمع والمفرد فيه سواء بخلاف السكاكي الذي بدا من كلامه في قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾ (مريم:٤) إذ سوى بين المفرد في النكرة والمعرفة في أن الاستغراق فيهما أشمل من استغراق الجمع ، حينما ذهب إلى أنه جاء بالإفراد في الآية في قوله : ﴿ ٱلۡعَظۡمُ ﴾ ولم يجئ بالجمع لأن استغراق المفرد أعم ، فلم يقل (العظام) لأنه لو قال بالجمع لأوهم كلامه أن الوهن لمجموعها وليس لجميع أفرادها فهو يفرق بين الإفراد والجمع في المعرف بـ (أل) . غير أن صاحب الكشاف رحمه الله قد دفع هذا الفهم حين بين سر التعبير بالعظم دون العظام فقال : (إنما أراد الجنس ، فكأنه

يقول : إن العمود الذي يتركب عليه جسمي ، وهو أقوى عنصر فيه ، وأشده قد وهن وضعف ، فما بالك ببقية عناصر الجسم)[1].

* * *

(١) الكشاف ٣/٤ .

تعريف المسند إليه بالإضافة

والإضافة تمثل لونًا من ألوان اختصار الكلام الذي يسرع إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع ، فهو أقرب طريق يستطيع المتكلم من خلاله أن يجعل المسند إليه حاضراً في الذهن ، شاخصًا فيه ، فحينما تقول : ابن عمرو فهذا أوجز من أن تقول : إنه ابن لهذا الرجل المسمى بعمرو وحينما تقول : (أبو عمرو) فإن هذا أخصر من أن تقول (أب لهذا الذي اسمه عمرو) وللتعريف بالإضافة دواع تطلبه ، وأغراض توجيه وتفرضه منها هذا الاختصار الذي حدثتك عنه الآن .

انظر إلى قول جعفر بن عُلْبه ،وكان سجينًا والسجن قارعة تصم ،وقيد يذل ، وغل يخنق ، وخطر يروع ، ووحدة توحش ، وظلمة تخيف ، وسواد يجلل ، ووحشة تخيم ، وأسى يرمض الأحشاء ، ويذيب الأكباد[1] .

هواى من الركب اليمانين مصعد	جنيبٌ وجُثْمَاني بمكّة مُوثَقُ
عجِيْبُ لِمَسْراها وأني تَخَلّصَتْ	إليّ وبابُ السِّجْن دُونيَ مُغْلَقُ
ألَمّتْ فحَيّت ثم ولّت فودّعت	فلما تولّتْ كادت النفس تَزْهَقُ
فلا تحسبي أني تخشّعتُ بَعْدكم	لِشَيء ولا أنّي من الموت أفْرقُ
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدكم	ولا أنّني بالمشي في القَيْد أخْرَقُ
ولكن عرتني من هَوَاكِ صبابةٌ	كما كنت ألقى منك إذْ أنَا مُطلقُ

فنحن أمام شاعر تجيش مشاعره في أبياته وتتوثب بلابله في خاطره ، وتتنزى عواطفه على لسانه ، وتقرأ كلماته فتحس أن تيارًا حارًا من أحاسيسه

(١) الأبيات منقولة من ديوان الحماسة اختيار أبي تمام شرح التبريزي ١/١٠، ١١ .

الحادة المتوثبة الصارخة يسري فيها فتبصرها وهي تفيض بعبرات الأسى ، وتتصاعد منها زفرات الأسف ، وتتجاوب فيها أصداء الحسرة على حرية مفقودة ، وعلى آصار تقبر الأماني ، وتقتل الأحلام وعلى آمال مغبرة في العيون ، وعلى أهوال متفجرة في الوجوه ، ولكنك في كل ذلك ترى الأسى الممتزج بالكبرياء ، والأنين المختلط بالامتلاء والاستعلاء .

فالشاعر يحن حنينًا ليس فوقه من حنين ، ويشتاق شوقًا لا يعد له شوق إلى قبلة روحه ومهوى فؤاده ، فيعبر عن تَحْنانه وأشواقه تعبيرًا يشعرك بما يجول فيه من رقة ، ورحمة ، حتى لتكاد ترى دمعة الثاكل ، وتسمع أنَّة الفؤاد المجروح ، إنه يهوى ولكن أين هو ممن يهواها ويذوب وجدًا فيها وتتصل روحه بها ؟

لقد مضت مع الركب اليمانين والقافلة الراحلة إلى مكة والتي تسرع الخطى ولا تتلفت إلى الخلف حتى بعدت بعد أن أخذت نفسه معها ، وأوغلت في هذا البعد فصارت تفصله عنها موامي ، ومهامه ، وقفار ، وبقي هو حيث كان يدير بصرًا حائرًا شاردًا زائغًا في معامي السجن وراء القضبان في عنقه الغل ، وفي قدمه القيد ، وفي يده الوثاق لا يملك إلا زفرات محترقة ، يبعث بها قلب يغلي ويفور .

لكن الشاعر الذي تحصره جدران المحبس ، يرى وجوده يمتلئ حين يبصرها بكل شيء فيها تسري إليه تزوره في وحشته الرهيبة وهمومه الغاشية متخطية أسوار السجن العالية ، ومتجاوزة أبوابه المغلقة الحصينة فتختلج العواطف في أعماقه ، ويتعجب من أمر هذا المسرى الذي حطم الحواجز ، وهدّم العوائق وشق لنفسه طريقًا بين الألغام والسدود وهي حين تسري تلم به في وداعة ، وتحييه في رقة فيهنأ ويفرح ، وينتشي ويطرب ، لكنها ما تلبث أن تولي مودعة إياه وداعًا يكاد أن يودع معه الحياة ، وأن تزهق بسببه الأنفاس ، لكن الشاعر الجازع المكروب يعلو فوق جراحه ، ويرتفع فوق آلامه ، فيعلل

لحزنه والتياعه فلا ينسى كبرياءه ، ولا قامته الممتدة ، ولا هامته الطويلة ، ولا رأسه المرفوع ، فيرفض أن ينحني انحناءة الذلة فيبين أنه جسور لا يخشى الأهوال ، ولا يحسب حسابًا لركوب المخاطر ولا يخاف من معانقة المنايا ، ولا يزدهيه الوعيد ، ولا يعبأ بالمشي مقيدًا بالسلاسل والأصفاد ، ولكن أنينه الكارب إنما كان بسببها ومن أجلها كان من حرقة هواها قد مَسّت قلبه فهفا واختلج وعاش في فيض من السحر والجمال والنشوة شعر معه بتدفق الحياة في جسمه ، وإشراق الصفاء في نفسه ، وتفجّر الحب في قلبه فأن هذا الأنين ، ونشَجَ هذا النشيج وتوجع وتألم .

ولا يخفى عليك ما تراه في البيت الأول من هذه الإضافة الواصفة في قوله : (هواي) بدلاً من قوله (الذي أهوى) وإنما حسَّن الإضافة هنا هذه المشاعر التي نثرها الشاعر في أبياته ، والتي عبرت عن ضيقه ، وضجره ، وحزنه وسأمه ، وهو ضيق نفسي يعتصر كيانه ، ويهد بنيانه ، ومما ضاعف من شدة تلك الآلام الملابسات العنيفة التي تضغط على نفس الشاعر فهو حبيس مقيد ، وحبيبه راحل مسافر ، وهذه الزيارة التي كانت منها إليه في محبسه لم تطفئ ظمأه وإنما أشعلت نار الحرمان في فؤاده وهو يشعر أنه غير قادر على الانطلاق معها ، والسير إليها ، فالاختصار الذي كان من وراء تعريف المسند إليه بالإضافة استدعاه ما تراه من هذا الضيق الذي يعيشه الشاعر ، ويحياه ولا حيلة له في دفعه ، ومعالجته ، فالتعريف بالإضافة هنا لون من ألوان أداء المعاني بما هو أليق بأدائها وتقديم الشيء في الصورة التي تلائمه ، وتناسب موقفه وتكون أليق به .

وقد يكون المقام مقتضيًا تعريف المسند إليه بالإضافة حين تغني عن تفصيل يتعذر تحقيقه ، فحينما تقول أصحاب رسول الله كانوا فرسانًا بالنهار ورهبانًا بالليل فإن الإضافة هنا قد أغنتنا عن تفصيل متعذر ، إذ من المعلوم بداهة أنه لا يمكن أن نعد أصحاب رسول الله ﷺ وأن نحصرهم جميعًا فنقول :

عمر ، عثمان ، خالد إلخ ، بالإضافة إلى ما يحققه التعريف بالإضافة أصلاً من الاختصار وعلى هذا النحو تجد قول حسان بن ثابت :

أولاد جفنةَ حولَ قبرِ أبيهمُ قبر ابن ماريةَ الكريم المفْضَل

أراد بأولاد جفنة الغساسنة ، ومثله قول مروان بن أبي حفص :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسودٌ لها في غيل خفَّان أشبل

بنو مطر : قومه بطن من شيبان . والغيلَ : الشجر المجتمع . وخفَّان : مأسدة قرب الكوفة . والأشبل : أولاد الأسود .

فالمراد ببني مطر : قومه وعدهم من الأمور التي تتعذر فلا تتحقق ومن ذلك ما أغنت الإضافة فيه عن تفصيل ، ولكنه مرجوح لأن العدد قليل قول الحارث الجرمي :

قومي همُ قتلوا أمَيمَ أخي فإذا رميْت يُصِيبني سَهْمِي

أي قال : قومي ، ولم يذكر الأسماء حتى لا يوغر عليه الصدور ومع هذا فالتعريف بالإضافة يشير إلى شيء آخر هو فداحة الجرم ، وبشاعة الجريمة إذ الدم المراق قد أريق بيد قوم الشاعر بيد أهله وعشيرته وعزه وقوته والمفروض في العشيرة أنها تساعد وتعين وتناصر وتصل وتواسي في الشدة تخفق قلوبها في المصيبة فإذا بهذه العشيرة هي التي تخذل وتهزم وتفرق وتقتل من ؟ تقتل أخاه وهو عاجز عن الرد عن الانتقام لأنه يرد على من ؟ وينتقم ممن ؟ يرد على نفسه وينتقم لنفسه من نفسه ذاك ما يحس به الشاعر وهو إحساس يضاعف من أساه ، ويزيد من كربه ، وشجنه ، فالبيت خبر سيق للتحسر إذ نبرة الوجع فيه واضحة ، وصوت الأسف فيه باديًا ، ورنين الحزن فيه ظاهرًا .

وقد يكون السر في تعريف المسند إليه بالإضافة أنها تتضمن تعظيمًا للمضاف وتشريفًا له خذ قول الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان:٦٣) فالإضافة إلى الله سبحانه غاية التشريف ، ونهاية التعظيم .

وقد قالوا إن المسند إليه يعرف بالإضافة لغرض يقتضيه المقام عكس ما سبق كتحقير المضاف إليه كقولك : صديق اللص جالس ، تقصد تحقير هذا الصديق بأنه يصادق لصًّا ، ومثل ذلك تارك الصلاة قادم وقد يتضمن التعريف بالإضافة استعطافًا كقولنا في غير باب المسند إليه ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) فقد أضيف الولد إلى كل من أبويه لاستعطافهما وحثهما على ذلك البرعم الصغير وقد تتضمن الإضافة استهزاء وتهكمًا كقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء:٢٧) ففي قوله (رسولكم) إضافة تقصد بها موسى عليه السلام وقد عرف بالإضافة قصدًا إلى التهكم والاستهزاء به عليه السلام .

* * *

تنكير المسند إليه

الذائع الجهير أن النكرة هي الاسم الشائع المبهم الذي لا يراد به معين ، أي الذي لا يراد به شخص معين وإنما يراد به واحد من أفراد الجنس ، ولذا فالنكرة إنما يؤتى بها عندما يراد عدم تعيين هذا الفرد ، وهي مفردة إنما تدل على فرد منتشر في جنسه ، ومثناة إنما تدل على اثنين ، وجمع إنما تدل على ثلاثة فأكثر على النحو السابق فحينما تقرأ قول الله تعالى في سورة القصص ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠) تجد أن المراد ليس تعيين الرجل ، وتحديد ملامح شخصيته ، ولكن المراد أن يصل إلى موسى عليه السلام ما يفكر فيه الخصوم من الائتمار على حياته عليه السلام وقتله على أن النكرة قد تساق في الكلام والمراد بها الإشارة إلى النوعية كما تجد ذلك في قول الشاعر العربي :

لكلِّ داءٍ دواءٌ يستطب به ... إلا الحماقةَ أعيتْ مَنْ يُداويها

واقرأ قول الله تعالى ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ (البقرة:٧) تجد أن المراد نوع معين من أنواع الغشاوة أو الأغطية لم يعرفه الناس ، وإن كان السكاكي يرى أن النكرة هنا للتعظيم والمقصود وعلى أبصارهم غشاوة عظيمة تحجب أبصارهم تمامًا ، وتحول بينهم وبين الإدراك إذ المقصود بيان بعد حالهم عن الإدراك ، على أنه يجب أن يوضع في الحساب والتقدير أن النكرة إنما تفيد معناها مطلقًا من كل قيد ، أما ما تحققه من معان إضافية فمرد ذلك إلى السياق الذي وردت فيه والمجال الذي تحركت من خلاله ، إذ إن ذلك هو الذي يصفها ، ويجليها ، ويحدد المراد منها ، ولذا فإنك تراها قد تجيء في سياق

فيكون معناها التحقير ، ثم تجيء هي بعينها في مكان آخر فيكون معناها التعظيم وهي هي بنفسها لم تتغير ولكنها اكتسبت دلالتها من المجال الذي وردت فيه .

انظر إلى قول الله تعالى في سورة البقرة متحدثًا عن اليهود : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۛ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:٩٦) فإنك تجد كلمة (حياة) في القول الكريم إنما تكتسب دلالتها من المقام فهو الذي يمنحها مذاقها ، ويلونها بلونه ، والمراد بالحياة هنا الحياة الوضيعة الحقيرة الدنيئة إذ لا يهم أمثال هؤلاء إلا أن يستمر وجودهم ، وأن تمتد حياتهم ، وأن تطول أعمارهم فهذا هو ما يهمهم ، وما يحرصون عليه إذن هم لا يبتغون إلا مطلق حياة إذ هي الغالية عندهم ، أما كيف يقضون تلك الحياة فهذا ما لا يعنيهم ، ولا يدور في حسابهم ؟ أتكون عزيزة أم ذليلة رفيعة أم وضيعة ، شريفة أم خسيسة ، عالية أم هابطة ؟ فهذا مما لا يجري لهم في خاطر ، أو يوضع لهم في تقدير ، ومن ثَمَّ فإن ما يوده الواحد منهم أن يعمَّر ألف سنة ولذا كان التنديد لهم ، والتقريع لأن النفوس العزيزة هي التي تنبو عن المذلة ، وترتفع عن الدونية ، وتقتل شِرَّة الحرص بالتضحية ، ويرتفع صوتها بالحق ، فالحياة وسيلة لتحقيق كل هذه المعاني الرفيعة ، والأعزاء حقًّا لا يريدونها إلا إذا كانت على هذا المستوى العالي الرفيع ، ويرفضونها إذا كانت على غير هذا .

ودع النكرة هنا وتأملها في سياق آخر في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩) ولن يخفى عليك أن المراد بقوله : (حياة) مطلق حياة فهي تتوافق مع الأولى في هذا ، ولكنها هنا الحياة الفاعلة المؤثرة ، الحياة الراقية العظيمة ، التي تحجب القتل ، وتحجزه ، وتمنعه ، فيستفيد المجتمع ، وتتحقق السلامة للأفراد ، فلا

تمتد يد بمدية تضعها في قلب إنسان ، وتسلب حياته ، لأنها تدرك أن للعدل يدًا تطول ، وقوة تقهر ، وأن القصاص شريعة الله التي ترسل الهدى ، وتلقى السكينة ، وتمنع من تحكيم الهوى ، وتغليب الأثرة ، وهوان الغرض ، وفجور الخصومة وكل ما لا يلائم فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولا يوائم طبيعة التقدم الذي يرفض همجية الغاب ، ومنطق الذئاب (الحياة) في الآية هي العظيمة ؛ لأنها هي التي تحول بين من يفكر في القتل وبين أن ينفذه ويقع فيه ، هي هنا تمنعه وتعوقه فيظفر بها حين يرتدع عن قتل غيره ؛ لأنه يعلم أنه سيؤخذ للمقتول بحقه من رقبته فيقتل به قصاصًا عادلاً وهذا القصاص حياة للمجتمع تتصل به عن طريق استمرار وجود أفراده الذين كانوا معرضين للقتل عقوبة وقصاصًا لو أنهم قتلوا ، وأراقوا دماء غيرهم

انظر إلى صاحب الإتقان في علوم القرآن وهو يقف أمام قول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ ويقول فيه : «فإن معناه كثير ولفظه قليل ؛ لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل كان داعيًا إلى أن لا يقدم على القتل فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم البعض وكان ارتفاع القتل حياة لهم»[1].

وقد نالت البلاغة في هذه الآية اهتمام الدارسين فذهبوا يشيدون بها إشادة هي بعض ما تستحقه ؛ لأنها فوق كل ثناء ومضوا يبينون ما تتميز به وتتفوق على ما أورد هذا المعنى من أفضل كلام العرب وهو (القتل أنفى للقتل) وإذا استثنينا ابن الأثير الذي أنكر التفضيل وقال : «لا تشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق» فإن النقاد والبلغاء قد ذكروا وجوهًا للتفضيل تصل إلى حد العشرين عند السيوطي .

وقد أوردها أبو هلال من قبله في قوله بعد أن ذكر القول الكريم : «ويتبين

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٥٥ . دار الفكر لبنان ـ بيروت .

فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) فصار قول القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة ، وهو إبانة العدل لذكر القصاص ، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ولإيجازة في العبارة فإن الذي هو نظير قولهم : (القتل أنفى للقتل) إنما هو : (القصاص حياة) وهذا أقل حروفًا من ذاك ، ولبعده من الكلفة بالتكرير ، وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن برىء من ذلك ، وبحسن التأليف ، وشدة التلاؤم المدرك بالحس ، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة» [1] .

هذا ، وترى من دلالة النكرة على التعظيم ما لا يخطئك فهمه في قول الله تعالى في سورة المائدة :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۖ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة:٤١) إذ لا يخفى أن التنكير في قوله تعالى : ﴿خزي عظيم﴾ وراءه ما وراءه من التضخيم والتهويل ، والتفظيع والتعظيم وهو في مجاله يغمر النفوس بالقوة ويملأ القلوب بالرهبة ، ويبعث في الأفئدة ألوانًا من الهول ، فالخزي خزي عظيم ، والعذاب عذاب ضخم غليظ ، لا يبلغ الواصفون مهما تفننوا القدرة على تجليته ، وكشفه ، ووصفه ؛ لأنه فوق كل وصف ، وفوق كل تقدير وحساب ، وتجد هذا المعنى في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران:١٣).

ولا يخفى أن الحديث هنا عما حدث يوم بدر ، وأن الخطاب موجه إلى اليهود ، وبدر في حياة المسلمين غلبة ، وانتصار ، وحياة ، وذكر ، وشرف ،

---

(١) الصناعتين ص١٨١ .

ومجد ، ونفحة من نفحات السماء ، وإقامة لدنيا المسلمين بعبير الخلد ، وأنفاس الملائكة ، وتوثيق لما وهى بين الدين والقلب ، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع ، وتندية لما يبس من الرحم بين أتباع محمد ﷺ ويا ليتهم الآن يسمعون ، وتبيين شاف لأثر العقيدة التي صنعت انتصار بدر ، ونالت تأييد الله .

فالعقيدة الإسلامية الصحيحة هي أضخم الحقائق في حياة المسلم كما أنها أضخم الحقائق في كِيان الوجود ؛ ومن ثَمَّ فإن اشتعالها في القلب وراء كل تألق وانتصار ، وانطفاءها في النفس وخبوها في الوجدان والشعور من وراء كل هزيمة وانكسار ، وحينما تدير ذهنًا واعيًا في الآية هنا ترى مع أن المخاطب بها في الأصل اليهود إلا أنها تبعث بنورها الباهر في كل اتجاه ، وترسل بأشعتها القوية إلى كل مكان ، وتذكر المسلمين في كل جيل وكل زمان ومكان ، بما يوقظ القلب ، فيخشعون إجلالا لعظمة هذا الدين ، ويدركون عن يقين أنه عقيدة فهو قوة ، وشريعة فهو دستور وروح فهو حياة ، وأن عليهم أن يتشبثوا بكل شيء فيه ، وأن يحافظوا عليه حتى لا تتخطفهم الذئاب العاوية التي تنادت على محقهم ، وتجمعت على إبادتهم ، وسحق وجودهم بعد أن جعلوا منه وحده خصمهم الذي يجب أن يُقضى عليه .

عليهم أن يعلموا أن النصر الذي تحقق لأجدادهم في بدر لم يكن ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار الإيمان الصادق ، الذي أحال الضعف إلى قوة وكان حكمًا قاطعًا من أحكام القدر غير مجرى التاريخ ، ومكّن للمسلمين أن يبلغوا رسالة الله ، وينشروا دينه في ربوع العالمين .

وحين تقف أمام قوله تعالى : ﴿ ءَايَةٌ ﴾ في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي عبرة وعظة تراها جاءت نكرة ، وتحمل معها من التعظيم والتفخيم ما لا يخفى فهي آية عظيمة تذهب النفس في عظمتها كل مذهب ، وتتجه كل اتجاه ؛ إذ إنها تشير إلى هذا النصر الهائل العظيم الذي تحقق للفئة القليلة في العدد ، القليلة في العدة والمؤونة والسلام على الفئة الباغية الكافرة الكثيرة الممتلئة

المسلحة ، وانكشفت فيه المعجزة الإلهية عن انتصار ثلاثمائة على ألف وقذف الله في قلوب المشركين الرعب ، فانهار السد الغليظ أمام الفيض الجياش من صخور بدر ، وتبدد الظلام الكثيف المتراكم عن النور المضيء الهادئ من ربوع يثرب حتى إنهم من شدة الفرق والخوف كانوا يرون أن المسلمين يتفوقون عليهم في العدد ، وأنهم مثليهم على حد ما حكى القرآن ومن هنا كان التنكير في قوله : ﴿ ءَايَةٌ ﴾ أي عبرة ومعجزة إشارة إلى أنها آية عظيمة .

أما تنكير الفئتين في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ فهو لبيان الخصوصية ذلك أن كل فئة من الفئتين فئة المؤمنين وفئة الكافرين تختص كل منهما بصفات معينة تصنع صفات المؤمنين النصر لهم ، وتحقق صفات الكافرين لهم الخذلان ، والانكسار ، والهزيمة ، والضياع .

وترى التنكير يفيد التعظيم وبلوغه فيه إلى الحد الذي لا ارتفاع فوقه في قوله في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٦٤).

إنك تقرأ هذه الآية فتراها تبعث في نفسك إحساسًا واضحًا بالروعة والعظمة ؛ إذ تطرد السأم عنها ، وتجدد الشعور بالراحة فيها من خلال هذا الجمال الخالب الذي يجري في تضاعيفها ، ويستولي عليها ، وهي تبصرة على نحو فذٍّ فريد في خلق السماوات والأرض ، وغشيان الليل النهار ، وطلبه له حثيثًا ، والفلك التي تجري في البحر على نحو يروع ويدهش بما ينفع الناس ، وتجميع النهر ، وتصريف الريح ، وإثارة البحر مما يعلن عن القوة الخارقة ، والقدرة الفائقة ، التي لا يُعجزها شيء ، وهل تنتظر النفس بعد هذه الآيات كلها آيات ؟

هي آيات تقوم عظمتها ، وتتجلى فخامتها في هذا الخلق المتقن البديع ، وفي هذا السير المحكم الدقيق على نحو لا تخطئه عين ، ولا يخفى على نظر مما يملأ الخيال بالتأمل الهادي والعقل بالتفكير العميق والشعور بالإحساس الرفيع ، والقلب بالإيمان الصادق مما يوقظ النفس ويدفعها إلى الإقرار بوجود الخالق سبحانه وجمال صنعته ، وحسن تنظيمه ، وروعة تدبيره .

ومما تجدر النكرة قد جاءت على نحو من التعظيم لا يماثل ما تراها في قوله تعالى في سورة التوبة :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:٧٢) فكلمة (رضوان) يراد بها التعظيم إذ المقام للوعد الذي لا يتخلف ، والمناسب له ، في مقام الامتنان بهذه النعم الغالية العظيمة أن يكون أعلى وأعظم ، وأبهى وأرفع من كل ما سبقه ، ولعل في وصفه سبحانه لهذا الرضوان بقوله : (أكبر) أي أعظم ما يشي بهذا ، ويشير إليه في ظهور ووضوح على أنه مما يجب أن يفهم أن التعظيم لا يضاد التقليل ، ولا ينافيه فقد يكون الشيء قليلا ، ويكون عظيما وعلى هذا فلا يمنع مانع من يفهم في قوله (رِضْوَانٌ) معنى القلة ، ولكنها القلة العظيمة التي هي أعظم من كل نعيم .

ومما جاءت النكرة فيه حاكية للتعظيم الذي لا يمكن أن يغيب أو يخفى ما تراه في كلمة (رسول) في قوله تعالى في سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨) فإن التنكير هنا يُشْعِر بالتعظيم الذي لا حد لمنتهاه لهذا الرسول الحبيب الذي أطلق الإنسانية من أسر الأوهام ، وطغيان الحكام ، وسلطان الجهالة ، وتحكم السفاهة ، وتغليب الأثرة ، وتفكك الخلق ، وتحلل الرجولة ، هذا الرسول الذي يعرفونه ، ولا يغيب شيء منه عنهم ، والذي هو من أنفسهم وأخيرهم ، وأعظمهم ، وأحسنهم .

وانظر إلى ما يبعث به التنكير من التعظيم في جهة ، والتحقير في أخرى في قول أبي السمط الذائع الشهير :

له حاجب في كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

وماذا تقول في رجل هذا شأنه ، وتلك حكايته ؟ إذ في مجال القدح والشين ، واللوم ، والذم ترى له من الحواجز ، والحوائل ، والموانع ما يحول بينه وبين أن يقع في شيء منها ؛ إذ يمنعه حاجب المروءة ، والنجدة ، والسيادة والفروسية ، لكنه في الجانب المقابل في الشاطئ الآخر ، فالجود غريزة في كِيانه ، والكرم طبع في وجوده ، والإحسان ركن من أركان حياته فلا يمكن أن يحجبه عن خلال الخير حاجب أو أن يمنعه من صفات التفوق والمعروف مانع وحين تدير كلمة (حاجب) في شطرى البيت في ذهنك وتتأملها من خلال موقعها ووجودها في عقلك ، فإنك تجدها في الشطر الأول ومن خلال السياق فيه تشير إلى التعظيم ، وتبعث بالفخامة والروعة ، فهذا ما يحتمه الموقف ، وما يقضي به الغرض ؛ إذ لا يخفى أن يكون الحاجب الذي يحول بين الممدوح ، وبين كل ما من شأنه أن يشين حاجبا عظيما فخمًا ، وحين تتأملها في الشطر الثاني تجدها تشير إلى التحقير والضئولة فليس هناك ما يحول بينه وبين خلال الخير والوصول إلى طالبي العرف وذوي الحاجات ، ودلالة السياق تقضي أن يكون الحاجب المنفي هنا والذي لا وجود له هو حاجب محقر تافه .

وانظر إلى التحقير الذي يبعث به المقام والذي تجده في كلمة (دهر) في قول إبراهيم بن العباس :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون على الأهوز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

وإني لأرجو بعد هذا محمدًا لأفضل ما يرجى أخ ووزير

فالدهر هنا في خيال الشاعر دهر تافه منكور لم يألفه ولم يعرفه هو دهر

غير الدهر الذي كان أيام أن ولي أمر الأهواز ، حين كان يقول فيسمع قوله ، ويعمل فيسجل تاريخ ، إذ كانت كلماته شريعة لا تخالف ، وحكمًا لا يدفع ، وقضاء لا يرد ، فالدهر وكأنه صنع خصيصًا للشاعر فهو دهر خداع غرار وليس في تفرده بالشاعر واختصاصه به كغيره من دهر الناس ، وإنما هو تافه حقير .

فتنكير الدهر قد أفاد هذا في دلالة واضحة لا تخفى ، والشاعر الضائق الضجر المأزوم يصب كل ضيقه وألمه وهمه في كلماته التي تحمل معاني الأسى والالتياع ، ويعبر بذلك عن مدى معاناته ، وعن شدة أهواله بسبب الإشاعات المغرضة التي أذاعها المرجفون حول عزله وتجرده وكان واليًا على الأهواز من قبل الواثق بالله وبهذا الدهر الخئون التافه .

وانظر إلى استمرار ضيق الشاعر الذي ينسحب على الصاحب والأعداء ، والنصير الذي تخلف وغاب ، وعلى المقادير والأمور وتأمل قوله : (وأنكر صاحب) فالكلام على تقدير : وأنكرت صاحبًا ، ولم يشأ أن يسند الإنكار إلى نفسه صراحة في اللفظ ؛ لأن الصاحب هنا ليس كسواه من الصحاب الخلص الأوفياء ، وإنما هو صاحب تافه حقير ليس أهلا للصحبة ، ولا جديرًا بها ، ولا مرتفعًا إلى مستواها ؛ لذا فهو ينكره ، ويحقره ، ويرفضه ، ويرفض كل من كان على مستواه في الغدر ، والخسة ، والحقارة ، والدناءة ، وهذا ما حققه التنكير لقوله (صاحب) هنا .

وأما التنكير في أعداء في قوله : (وسلط أعداء) فهو يشي بتفاهة الشأن ، وخبث النفس ، ولؤم الطبع ، والحقارة ، والخسة ، فهم لا يؤبه بهم ، ولا يعمل حساب لهم ، ولا يوضعون في خاطر أو تقدير ؛ إذ هم لا يملكون من أمرهم شيئًا فهم إمعات تابعون لغيرهم ، يحركونهم ويدفعونهم فهم أهون من أن يعادونني إلا إذا كانوا مساقين إلى تلك العداوة من غيرهم الذي يوجههم ،

وحتى هذا الذي يوجههم هو الآخر رخيص تافه إذ يعجز عن أن يظهر ويعلن عن نفسه .

وإذا كان الشاعر يحقر الدهر والصاحب والعدو والنصير الذي لا وجود له ويثور في وجه هؤلاء جميعًا فإنه يود لو أن داره بنجوة وأن تكون في الحاضر والمستقبل كما كانت في الماضي تبعث الطمأنينة في النفس ، والرضى في القلب ، كما أن التنكير (في مقادير وأمور) يشي بأنها مقادير وأمور قد خصتا بالشاعر ، وتفردتا به ، وأوقفتا عليه ، فلا تتجاوزانه إلى غيره ، ولا تتعديانه إلى سواه ، ولا يشترك معه فيهما أحد أبدًا ، وإنه ليرجو أن ينتصر له الوزير محمد ابن عبد الملك الزيات ، فلا يحقق ما أراده له الأعداء ، ويخيب آمالهم ، ويبطل كيدهم ومكرهم .

وترى تنكير المسند إليه على هذا النوع الفائق من الحسن في قول ابن المعتز :

وإني على إشفاق عيني من العدا لتجمح مني نظرة ثم أطرق

فالنظرة هنا نظرة عظيمة لأنها نظرة يستعصي على الشاعر أن يكبح جماحها ، فهي تفلت منه شاردة رغمًا عنه وبدون إرادة منه مع إشفاقه من الأعداء والخصوم والنمامين حتى لا يرجفوا به ، ولا يشوا .

هو يضعهم في تقديره وفي حسابه فلا يحاول أن يريهم منه ما يكره أو تقع عيونهم على ما لا يرغب ، ولكن ماذا يصنع والهوى غالب ، والإحساس متوهج ، والقلب متوقد إن نظرة شرودًا منه تفلت فلا يملك أمامها إلا التسليم لأنه لا يستطيع أن يرد جماحها ولا منعها مهما بلغ منه الإشفاق ، والخوف من المتلصصين الرقباء .

ولعل ما يشي بعظمة تلك النظرة ما تراه من التعبير بقوله : (ثم أطرق) الذي يومئ بذهول الشاعر عمن حوله وعن نفسه بعد أن انطلقت منه تلك

النظرة الجامحة التي امتدت وتراخت وطالت لأنه ساعتها لم يكن شاعرًا لا بنفسه ، ولا بمن هم بجواره .

على أن التنكير قد يفيد معنى التنكير مع التعظيم ، وانظر إلى كلمة رسل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (فاطر:٤) فتنكير كلمة (رسل) يعبر عن الكثرة ، ولكنها الكثرة العظيمة الفاعلة المؤثرة ، فكلمة (رسل) تعني الكثرة كما تعني الفخامة والعظمة أيضًا .

وكما يفيد التنكير معنى التعظيم والتقليل يفيد معنى التعظيم والتهويل على حد ما تراه في قوله تعالى حاكيًا على لسان إبراهيم عليه السلام في حديثه لوالده في سورة مريم : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٥) فالتنكير في كلمة (عذاب) يفيد التعظيم والتهويل والتخويف ولا عبرة بما يمكن أن يعترض عليه بما في الصياغة من وسائل وأدوات فيقال : إن المس دون الذوق وهو ما لا يشعر لا بالضخامة ولا بالعظمة لأن المس قد يستخدم فيما يفيد العنف والغلظ والشدة وهذا ما تراه في قوله تعالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٨) فقد وصف المس هنا بهذا الوصف الذي يروع ويهول ويرعب كما لا محل للاعتراض على الضخامة والعظمة في العذاب بقوله (من الرحمن) لأن العذاب من الرحمن تراعى فيه الرحمة التي تناسبها القلة فيكون العذاب قليلا حتى يتلاءم مع كونه من الرحمن الذي سبقت رحمته غضبه لأن الحليم إذا عاقب فقد يكون عقابه شديدًا ، وعذابه وجيعًا وأليمًا ومن ثَمَّ قيل اتقوا صبر الحليم[1] .

وقد يجيء المسند إليه نكرة للدلالة على التعميم ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص ١٦٧ .

بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات:٩) فالتنكير في قوله (طائفتان) أي المؤمنين يشعر بوحدة المسلمين الذين لا يجب أن يكونوا أشتاتًا من غير جامع،أو هملاً من غير رابط،أو أحياء من غير غرض ، وأن ينفقوا أوقاتهم في نزاع لا ينقطع ، وصراع لا يني ، وحرب لا تفتر ؛ ومن ثَمَّ بيّن الله الواجب حيال النزاع القائل أو النزاع يقوم بين طائفتين من المؤمنين بالإصلاح بينهما ، وقتال الطائفة التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله و ﴿ طَآئِفَتَانِ ﴾ المقصود بها أي طائفتين من المؤمنين دون انحياز لأحدهما ، أو تعصب لهما في أي زمان وفي أي مكان ، فالتنكير هنا يشعر بهذه الوحدة ، ويقيم أسسها ، ويدعم أركانها ، ويبين أنها وحدة قائمة على الإيمان الصادق ، والعقيدة الصحيحة والإخاء الإسلامي .

فالمؤمنون في كل زمان وعلى أية أرض إخوة والتنكير لإفادة التعميم بين جميع المؤمنين في كل الأجيال وعلى مختلف الأزمان ، من غير تحيز أو تعصب إذ هم إخوة .

وقد يؤتى بالمسند إليه نكرة للدلالة على التنويع كما تجده في قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فالتنكير في (درجات) يدل على التنويع والاختلاف ، فهي ألوان ، وشكول ، وأنواع ليست كلها في مستوى واحد ، وعلى هيئة واحدة ، وشكل واحد ، فليست درجات المؤمنين كدرجات الكافرين ، فدرجات المؤمنين عالية قد اتسق في ظلالها الخفض ، وجرى مع أمواهها النعيم ، وسرى في أجوائها الأنس ، وتدفقت أرضها بالخير ، وترقرق ممشاها بالجمال ، ودرجات الكافرين في قاع جنهم سافلة ظلها حرور ، وماؤها مهل وأنسها وحشة ، وطعامها زقوم ، وشرابها حميم .

* * *

تقديم المسند إليه

تحدث الإمام عبد القاهر عن التقديم عمومًا حديثًا أشاد فيه بفضائله ، وبين درجاته ومنازله ، وحدد شياته ، ومعالمه ، وصاحب الدلائل والأسرار حجة في علوم اللسان وإذا كان نحويًا قد امتزجت مسائل النحو بدمه ، واتصلت بروحه ، وجرت في عروقه ، فإنه شيخ البلاغة ، العليم بأسرار تراكيبها ، البصير بمواقع الألفاظ فيها ، الخبير بمواضع النقد ، المحيط بمذاهب الكلام ، فلا يغيب عن ذاكرته اللاقطة شيء من دقائق النحو ، وخواص التراكيب ، وفروق الدلالات ، وفقه النصوص الذي كان له قدرة فذة فريدة على استكناه أسرارها ، والغوص في أعماقها ، والتعليل لها والاستنباط منها بعد التقليب ، والتنقيب ، والملاحظة ، والمعاودة والإجالة حتى تتضح صورتها في نفسه ، وتتكاثر في خاطره ، وتتشعب في وجدانه فإذا تحدث الرجل عن التقديم فوضعه في مرْتقى عال ، وسما به إلى أفق بعيد فاعلم أنه حديث البيان الملهم ، والفكر المنير ، والعقل الجبار والنفس الحاضرة الواعية .

وإذا كنت قد أشرت إلى عبد القاهر النحوي هنا فلأن مبحث التقديم يتقاسمه النحاة والبلاغيون ، فهو يجري على أفواه أصحاب اللسان كما يتدفق نميرًا رقراقًا عذبًا على ألسنة البيانيين ولن يحدثك عنه حديثًا جميلا يستولي على قلبك ، ويجري في شعورك ووجدانك كعبد القاهر الذي تلاقت في نفسه كل الثقافات اللغوية ، وامتزجت في خاطره ، وكيانه امتزاجًا موفقًا وسعيدًا على نحو يتصل فيه القلم بالعقل ، فلا بلغوا مما أفصح كل هذا عن سمو العبقرية والإعجاز في الصنعة والإبهار في حسن التدليل والمناقشة .

فلنستمع إلى الرجل وهو يثني على بلاغة التقديم فيقول : « هو باب كثير الفوائد ، جمُّ المحاسنِ واسع التصوفِ لا يزال يفتَرُّ لك عن بديعة ، ويفضي

بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، وأن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»[1]

والتقديم لبعض أجزاء الجملة على بعض يستقبله البلاغي استقبالاً خاصًّا فيه حفز للهمة ، وإيقاظ للعمل الذي يمضي دارسًا فاحصًا باحثًا عن السر وراء دفع أجزاء التركيب إلى المقدمة وزحزحة الجزء الآخر إلى الذيل والمؤخرة .

ليس الأمر إلى أن تعمد إلى أحد العناصر في العبارة فتقذف به إلى الأمام ، وأن تأتي إلى غيره فتضعه في الخلف ، بل إن الأمر على خلاف ذلك تمامًا ؛ إذ إن العبارة صورة للنفس فلا مناص من أن ترتسم فيها مشاعر مؤلفها ، لابد أن تنعكس فيها ما يتردد في صدر صاحبها ، وما يسري في أعماقه ، وما يحوز اهتمامه ، وما يريد أن يبعث به إلى ذهن المتلقي والأخذ عنه ؛ إذن التعابير البلاغية يجب أن تكون صدى لكل ذلك .

إن وظيفة البلاغي أن ينظر إلى تراكيبه ، إذ هو مشرع يجب أن يتوفر له صدق التمييز ، ودقة الملاحظة ، وسمو الفكرة ، وقوة الأسلوب ، فهو حين يقدم كلمة ويؤخر أخرى ، إنما يصنع ذلك لأن لكل كلمة موضعًا تجمل فيه ولا تحسن في غيره ، والجزء المقدم إنما هو جزء كان مكانه شاغرًا ينتظره هو إذ هو الذي يجب أن يملأه ؛ لأن بلاغة الكلام إنما تتم على هذا الأساس ، فلما جاء وحلَّ فيه كان ذلك بمنزلة وضع الشيء المناسب في المكان المناسب الذي يجب عدم زحزحته عنه ، فلكل كلمة موطنها في التعبير الذي لا يجب أن تتأخر عنه ، أو تتقدم ، هذا إذا كنا ننشد البلاغة العالية ، ونسعى إلى إنشاء فن رفيع يغمر الشعور بالجمال الخالد .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٣ .

فالتقديم حين يتطلبه الموقف ويقتضيه الغرض هو ضرورة ملحّة ، إنه ساعتئذ يكون قد أشار إلى مغزى ، ودل على هدف ، وحقق غاية وأرضى الأذواق ، إذ هو بذلك ثمرة من ثمار النفس الذي انعكست فيها جميع الألوان فتقدم في الأسلوب ما تجد النفس أن تقديمه أفضل ؛ لأنه المحور الذي يدور حوله الحديث ، والأساس الذي يقوم عليه البناء ، ومن ثَمَّ فإن ما يتقدم في الكلام يكون هو المقدم لدى النفس الأثير لديها الحقيق بأن يحتل الصدارة ، وأن يتربع على عرض المقدمة ، خذ[1] قول الله تعالى في غير باب المسند إليه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

تجد تقديم المفعول هنا مشعرًا بالحقيقة الخالدة التي يجب أن تكون وهي أن الله وحده أهل للعبادة ، والله وحده هو الذي يُستمد منه العون وفي هذا ارتقاء الإنسان وسيادته ومن ثَمَّ يكون سيد الأحرار في دنيا العالمين ، ذلك أنه في الوقت الذي ارتضى فيه أن يكون عبدًا لله وحده ، فعرف أنه لا غيره الذي يجب أن يُعبد فعَبَده ، وهو وحده الذي يجب أن تُستمد منه المعونة فطلبها منه قد تحرر من عبوديات كثيرة فلم يعد عبدًا لشهوة رخيصة تذله ولا لفلان من الناس ، لأنه يمكن أن يضره أو أن ينفعه ، لأن النافع والضار هو الله سبحانه ، ولم يتقاعس أمام تضحية ، ولم يتخاذل أمام بذل ولم يهن أمام موقف ؛ لأنه على يقين أن الأمر كله بيد الله الذي هو أهل للعبادة وللاستعانة به .

هذا والمراد بتقديم المسند إليه والإتيان به مقدمًا سواء أكان مقدمًا من تأخير أو كان مرتبة التقديم ، وهذا التقديم لا يأتي في الكلام اعتباطًا ، أو يُساق فيه من غير دواع تستحثه ، وأغراض تقتضيه ، وإنما يجيء ومن ورائه أحوال وهي بالإجمال ترجع إلى أصول خمسة :

١- العناية والاهتمام .

---

(١) فاتحة الكتاب ، الآية رقم ٥ .

٢- إرادة التخصص إذا كان المسند فعليًا .

٣- إرادة التقوى إذا كان المسند فعليًا .

٤- تقديم ما هو لازم بلاغة .

٥- تقديم المسند إليه على أداة السلب لعموم السلب أو لسلب العموم .

وقد كان المتقدمون على عبد القاهر لا يهتمون بأمر التقديم فيما يبدو ولا يلتفتون إلى دقائق أسراره ، والبحث وراء علله وكانوا يذكرون علة التقديم في أنه قدم للاهتمام بأمره ، والعناية بشأنه من غير أن يشرحوا ويفصّلوا ، فنعى عبد القاهر عليهم ذلك وقال مقولته الجهيرة :

« واعلم أنَّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئًا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام قال صاحب الكتاب - يعني سيبويه - وهو يذكر الفاعل والمفعول ، كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم ، وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم .

ولم يذكر في ذلك مثالاً إلا أن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسر وجه العناية فيه ... وقد وقع في ظنون الناس أن يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولم كان أهل ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربًا من التكلف »[1] .

والمقصود بالتقديم الذي هو على نية التأخير هو ذلك التقديم الذي يبقى فيه المقدم مستمرًا على حكمه الذي كان له قبل التقديم ، نحو قولك : منطلق زيد وعمرًا ضربت ، وراكبًا جئت فلا يزال الأول خبرًا والثاني مفعولاً به والثالث حالاً .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٨٤ ، ٨٥ .

والمقصود بالتقديم الذي ليس على نية التأخير هو ذلك التقديم الذي ينقل فيه المقدم من حكم إلى حكم مثل قولك: زيد ضربته، إذ الأصل ضربت زيدًا، فقدم المفعول به وصار مبتدأ وأخذ حكمه فرُفع بعد أن كان منصوبًا، وهكذا تحول من حكم إلى حكم، ومن إعراب إلى إعراب.

ومثل ذلك في التحول من حكم إلى حكم قولهم: زيد المنطلق، والمنطلق زيد، إذا جعلت المقدم في كل منهما مبتدأ لاقتضاء المقام ذلك فقد تقرر أنه إذا كان معك اسمان معرفتان فأي الاسمين كان معروفًا معلومًا يطلب الحكم عليه جُعل مبتدأ، وأيهما كان بحيث يطلب الحكم به فهو الخبر فإذا عرف المخاطب زيدًا ورأى شخصًا منطلقًا إن كان متوقعًا أن تحدثه عن زيد فقل له: زيد المنطلق، وإن كان متوقعًا أن تحدثه عن المنطلق فقل له: المنطلق زيد، فالمنطلق في كل منهما مبتدأ والمؤخر خبر [1].

هذا وتقديم المسند إليه للعناية والاهتمام قد أشار الخطيب إلى تفصيل تلك الأهمية التي اقتضت تقديمه بما يأتي:

لأنه الأصل، إذ هو المحكوم عليه وتصوره سابق في التعقل على تصور الحكم لكن هذه الأصلية التي تقتضي سبقه وتقدمه إنما تكون حيث لا يوجد مقتض يفرض تقدم المسند، إذ لو وجد داع لتقديم المسند على المسند إليه فإنه يأخذ مكان القلب والصدارة ويتزحزح المسند إليه ليكون من بعده، ومن خلفه، وهذا ما تجده واضحًا بالنسبة للفاعل مع الفعل إذ إن الفعل عامل، والفاعل معمول، ومن حق العامل أن يتقدم على المعمول.

وكما في قصر المسند إليه على المسند كما في قولك: مصري أنا، فالمتكلم مقصور على المصرية لا يتجاوزها ولا يتعداها إلى جنسية أخرى،

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص٨٣، ٨٤.

أو التشويق إلى المسند إليه بتقديم المسند كما إذا كان في هذا المسند ما يثير هذا التشويق ويبعث عليه وذلك كقول أبي العلاء المعري :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها وأولها دخان

ومن هنا نفهم أن تقديم المسند إليه لكونه الأصل علة ضعيفة ؛ لأنها مشروطة بعدم وجود ما يقتضي العدول عن هذا الأصل .

ويُقدم المسند إليه ليتمكن الخبر في ذهن السامع ؛ لأن في المبتدأ تشويقًا إليه إما لأن هناك غرابة في الصلة حين يكون موصولاً كقول أبي العلاء المعري :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

والمقصود بالحيوان ـ هنا ـ هو الإنسان ، فأول الكلام فيه تشويق للسامع لمعرفة هذا الذي حارت البرية فيه ، فهذه الحيرة في معرفة هذا المخلوق العجيب وفي الوقوف على كنهه ، ودخيلته وحقيقته أإنسان هو أم حيوان أم جماد ؟

هذه الحيرة التي تبعث على التساؤل تشوق إلى معرفة من وقعت فيه ، وتعلقت به ، فإذا ما جاء الجواب في ذكر المسند وأنه حيوان مستحدث من جماد تمكن النفس فضل يمكن بعد أن تهيأت لمعرفته ، ورنت إلى الوصول إلى سره وخبره .

وتمكن الخبر في ذهن المتلقي كما يكون في غرابة صلته إن كان موصولاً كما رأيت يكون أيضًا في غرابة صفته إن كان موصوفًا مثل قولك : الداء المستحكم الداعي لحيرة الأطباء ، فهذا كلام فيه غرابة يثير أشواق النفس ، ويحرك لهفتنا إلى معرفة حقيقته والوصول إلى ما هو ؟ فإذا قلت التمزق والتفرق والتشرذم ، فإنك بذلك تكون قد قدمت المسند إليه لتشوق السامع إلى ما بعده .

ويتقدم المسند إليه ليتمكن في ذهن السامع إذا كان المسند إليه ضمير الشأن أو القصة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) وكقول إبراهيم بن سليمان الشرقاوي من علماء الأزهر الشريف :

هي الآمال نبنيها قصورًا على عمد الكلام فهل تقام ؟

فإن ضمير الشأن أو القصة إنما يثير أشواق السامع ويبعث تطلعاته وذلك لما فيه من إبهام وغموض يحتاج إلى شرح وتفسير وبيان ، وهذا ما يقوم به المسند الذي يزيل ما في الضمير من عدم الوضوح فيأتي على النفس التي اشتاقت لمعرفة حقيقته فيثبت فيها ، ويتمكن منها ، ويستقر في أعماقها استقراراً دونه كل استقرار .

ويُقدم المسند إليه من أجل التلذذ بذكره وذلك كقول جميل بثينة :

بُثَيْنَةُ ما فيها إذا ما تُبُصِّرَتْ مَعَابٌ ولا فيها إذا نُسِبَتْ أَشَبُ

إذ لا يصح في شريعة المحبين أن يتقدم على المحبوب كلام ، والمحب إنما يجد متعة تفوق كل متعة ، ولذة تتفوق على كل لذة وهو يجري ذكر من يحب على لسانه ، بل إنه إنما يجري عليه رغمًا عنه ومن غير تفكير فيه يفتتح به كلامه ، وبه أيضًا يختتم حديثه وهو في كل الأوقات لا يغيب عن قلبه وخاطره لحظة من ليل أو نهار .

ويُقدم المسند إليه ويكون الغرض من تقديمه إظهار تكريمه وتعظيمه ، كما في قوله تعالى في سورة الواقعة : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الواقعة:١٠-١٢) ولاشك أن التقديم هنا إنما يُقصد قصدًا إلى الإشادة بالمقدمين وإلى بيان عظمتهم ، ودرجتهم العليا التي وصلوا إليها عن جدارة واستحقاق ، وفي قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (الزمر:٢٣) فالله

لا غيره ولا أحد معه هو الذي نزل هذا الكتاب وهو القرآن أحسن الحديث والاختصاص ـ هنا ـ يشير إلى جلال قدر هذا الكتاب ، وعلو منزلته ، وسمو معانيه ، فتقديم لفظ الجلالة يشير إلى هذا إذ هو حديث الله إلى عباده ، والمثاني جمع مثنى لما فيه من بيان الأمور وأضدادها ، والقرآن في كلٍّ في أعلى وأعز وأغلى مكانة أو لا حديث أحسن من حديث الله .

* * *

تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي

يرى عبد القاهر أن المسند إليه إذا تقدم الخبر الفعلي وكان المسند إليه واليًا حرف النفي أفاد التخصيص ، فإذا قلت : ما أنا فعلت هذا . ما المسلم يخون دينه . ما رجل أعد هذه المائدة . ففي هذه الأمثلة قد تحقق شرطان :

الأول : أن المسند فعل .

الثاني : أن المسند إليه أتى بعد نفي .

ولذا فإن التقديم في هذه التعابير يفيد التخصيص قطعًا عند الإمام عبد القاهر ، ومعنى التخصيص هنا أن الفعل لم يقع من المسند إليه وإنما وقع من غيره ، ففي قولك : ما المسلم يخون دينه ، حققتَ بهذا شيئين .

أولاً : إنك نفيت الخيانة عن المسلم .

ثانيًا : إنك أثبت الخيانة لغيره .

فهذا الأسلوب على هذا النحو السابق إنما نلجأ إليه إذا أردنا إفادة الأمرين السابقين نفي الفعل عن المسلم وإثباته لغيره ، ولذا يقال في تأكيد هذا الأسلوب ما المسلم يخون دينه بل غيره مما يوثق أنه أسلوب قصر ، ومما هو بيّن في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل ما ذكره عبد القاهر من قول المتنبي[1] .

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا

المعنى كما لا يخفى أن السُّقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفي إليه ولكن إلى أن يكون هو الجالب له وأن يكون قد جره إلى نفسه ، فهو على

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٠٠ .

معنى بل غيره هو الجالب له ، ولعل المناسبة التي كانت من وراء إنشاء القصيدة الذي جاء فيها هذا البيت توثق ذلك ، إذ استبطأ سيف الدولة مدح الشاعر له فأرسل إليه معتذرًا وأنشده مدحته التي بدأت بقوله :

أرى القـــربَ صــار ازورارا   وصــار طويــلُ الســلام اختصــارا

تــركتني اليــوم في خَجْلَــةٍ   أمــوتُ مِــرَارًا وأحيــا مِــرَارا

ومثل بيت المتنبي السابق في وضوح ما أشار إليه عبد القاهر من أن تقديم المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي يفيد القصر قول المتنبي أيضًا :

وما أنا وحْدي قلتُ ذا الشــعرَ كلَّــهُ   ولكن لشعري فيك من نفســه شــعرُ

فالشعر مقول وواقع لا محالة ، ولكن الشاعر ينفي أن يكون هو القائل له وحده ، بل إن شعر الشاعر قد شاركه في قرضه وإنشاءه ، وهي مبالغة أتى بها الشاعر الذي لم يمدح صادقًا في مدحه إلا سيف الدولة .

ومثل قول المتنبي السابق في إفادة تقديم المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي القصر ما تجده في قول الحبيب ﷺ لمن جاء إليه من الأشعريين يريدون أن يحملهم معه للجهاد ، فلما لم يجد ما يحملهم عليه ساق الله إليه ما حملهم إليه فقال لهم ﷺ (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم) على هذا الأساس يفهم من الكلام السابق كما في قوله ﷺ مثلا (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم) انتفاء الحكم عن المسند إليه وثبوت هذا الحكم للغير ، وعلى هذا فلا يعبر بهذا الأسلوب إلا في شيء قد ثبت حصوله فعلا ، والمراد نفي حصوله عند المسند إليه دون غيره .

واستدل على أن هذا التركيب يفيد ما تقدم بأنك لا تستطيع أن تقول ما أنا فعلت هذا ولا أحد غيري ، وذلك لأن هذا التركيب يفيد ثبوت الفعل ونفيه عن المقدم ، ومن ثَمَّ لا يصح نفيه عن الغير لأن في هذا تناقضًا ، أو لأنه يلزم عليه أن يكون هناك فعل من غير فاعل وهذا مستحيل قطعًا .

وعليك إذا أردت أن تنفي هذا الفعل عنك وعن غيرك أن تلجأ إلى طريق آخر من طرق البيان والتعبير ، فتقول : ما فعلت أنا ولا أحد غيري بتأخير المسند إليه وإيلائه حرف النفي ، لأنك ساعتها قد نفيت فعلا لم يثبت أنه قد وقع ومن ثَمَّ يجوز أن تنفيه عنك وعن غيرك .

كما أنه لا يصح أن يقال : ما أنا رأيت أحدًا من الناس ، ولا ما أنا ضربت أحدًا إلا زيدًا لأن المنفي في المثال الأول الرؤية الواقعة على كل أحد من الناس ، والمنفي في الثاني ضرب جميعهم سوى زيد ، وبناء عليه إن الرؤية تثبت لخلاف المسند إليه ومثل ذلك الضرب فيكون هناك من رأى جميع الناس ومن ضرب جميعهم سوى زيد أيضًا قضاء لحق التخصص،وهذا محال.

وإنما قلنا قضاء لحق التخصّص ؛ لأن ثبوت الحكم للغير ينبغي أن يكون على الوجه الذي انتفى به عن المسند إليه من الخصوص والعموم ، فإن كان المنفي المسند إليه خاصًّا كان الثابت لغيره كذلك ، وإن كان المنفي عامًّا كان الثابت لغيره كذلك . ومن هنا لا يصح أن تقول : ما أنا رأيت أحدًا من الناس ولا ما أنا ضربت أحدًا إلا فلانًا[1]. فإذا لم تقدم المسند إليه الذي ولى حرف النفي على المسند الفعلي فإنه يصح أن تقول : ما رأيت أحدًا من الناس أو ما رأيت أنا أحدًا من الناس ، كما يصح أن تقول : ما ضربت أحدًا إلا زيدًا أو ما ضربت أحدًا إلا زيدًا إذ التركيب هنا لا يفيد التخصيص ومن ثَمَّ لا يفيد ثبوت الحكم للغير .

هذا ويجب أن يوضع في التقدير والحساب أن المسند إليه إذا تقدم على خبره الفعلي وكان واليًا للنفي ، فإنه يفيد القصر ، أي قصر نفي الخبر عليه وجهًا واحدًا سواء كان المسند إليه ضميرًا كما في قولك : ما أنا قلت أو مظهرًا مثل ما زيد فعل هذا معرفًا كما سبق أو منكرًا كما في قولك ما رجل فعل هذا.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص٩٧ ، ٩٨ .

لكن هل هذه القاعدة مطردة تصدق على كل الأساليب العربية وتتحقق فيها؟ إن القاعدة تصدق على مثل قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٩) فإيلاء الضمير لحرف النفي وتأخر الخبر الفعلي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

أفاد القصر فعدم النصر في هذا اليوم خاص بالكافرين لا يتجاوزهم إلى سواهم من عصاة المؤمنين الذين آمنوا وبقي إيمانهم وماتوا وهم مؤمنون ، إذ قد ينصرهم الله برحمته ومثل هذا ما تراه في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:١٢٢،١٢٣) فإن في قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ قصراً تحقق من إيلاء المسند للضمير ، وتقديمه على المسند إليه الفعلي على نحو ما سبق ، ومثله ما تجده في قوله تعالى في سورة فصلت : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (فصلت:١٦) وقوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الدخان:٤٠،٤١) في مثل هذه الشواهد تجد القصر واضحًا لكنك لا تطمئن إلى وجود القصر في قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٠) وفي قوله سبحانه في سورة البقرة : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (البقرة:١٦٢) ، وفي قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (النحل:٨٥) ، وفي قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (السجدة:٢٩) إذ الآيات تبعًا لسياقها

الذي وردت فيه إنما تتحدث عن الكافرين وموقفهم من العذاب يوم القيامة وأنه لا مرد لهم عنه ، ولا هروب لهم منه ومعنى ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ والله أعلم أنهم لا يتركون ولا يؤخرون ولا يمهلون للمراجعة والتوبة ، وبالنظر فيها كلها نجد أنه لا وجه للاختصاص يمكن أن يفهم منها ؛ لأن معنى الاختصاص فيها على حد ما فسره عبد القاهر في مثل هذه التعابير أن عدم الإمهال خاص بهم لا يتخطاهم ولا يتجاوزهم إلى ما عداهم فيكون هناك من ينظر ، ويمهل ويترك وعلى هذا فيكون عدم الانتظار بمعنى عدم إعطاء فرصة للتوبة مقصوراً على البعض دون البعض ، وهذا ما لا يستقيم ولا تطمئن النفس إليه إذ لا رجوع إلى الدنيا بعد القيامة حتى يكون هناك إمهال لأحد ، أو رجوع ، أو توبة .

والقرآن قد حكى أن أهل النار يتمنون الرجوع إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه ، لكن الله أدرى بهم وأعلم بدخائلهم فبين أنهم لو ردوا مرة ثانية لما أصلحوا ما أفسدوا وإنما عادوا لما نهوا عنه ، فقال سبحانه في سورة الأحقاف : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (الأنعام:٢٧،٢٨).

ومن هنا فإن هذا الأسلوب في تلك الآيات يفيد التقوية[1] وتكون القاعدة التي أقامها الإمام عبد القاهر غير مطردة ، ومن الأوفق أن يضاف إليها ما يخرج منها أمثال تلك الأساليب التي منعت مقاماتها التي وردت خلالها من تحقق معنى القصر فيها ، وتكون قاعدة عبد القاهر مشروطة بمعونة المقام ونصرة السياق ، وبذلك نتفادى تعميم هذه القاعدة على تراكيب يكون المانع من تحقق معنى القصر فيها هو المجال الذي تحركت فيه ، وسيقت من خلاله .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ص ١٧٨، ١٧٩ الدكتور محمد محمد أبو موسى طبعة ثانية .

هذا كله إذا كان المسند إليه واليًا حرف النفي ، فإن لم يكن واليًا وذلك يتحقق إجمالاً في صورتين :

أ- عدم وجود حرف نفي في الكلام .

ب ـ أن يكون حرف النفي متأخرًا عن المسند إليه .

وفي هذا يحتمل أن يكون الكلام مقصودًا به القصر ، أو مقصودًا به التوكيد والتقوية والذي يحدد المراد في ذلك ويقوي أحد الفهمين هو السياق إذ هو الحكم الذي لا ترد حكومته ، ومراعاة التناسب بين الكلام ، وبين الغرض منه أمر حتمي وضروري فقولك : أنا فعلت هذا ، أو أنا ما فعلت هذا يحتمل بحسب صورته القصر والتقوية .

فمثال ما هو متعين للقصر قولهم في المثل العربي «أتُعلمني [1] بضب أنا حرشته» وهو مثل يقوله العالم بالشيء لمن يريد تعليمه إياه ، وحرش الضب واحترشه صاده بالحيلة المعروفة وهو أن يحرك يده على باب جحره فيخرج ليضربها فيأخذه إذ الكلام على معنى ما حرشه أحد غيري فهو الذي حرش الضب لا غيره ، ولم يشاركه أحد في هنا ، فالقصر مفهوم من دلالة المقام الذي يفيد قصر اصطياد الضب عليه لا على غيره .

ومما هو متعين للقصر كذلك ما تراه في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ (التوبة:١٠١) مردوا على النفاق ، أي صاروا مهرة في فنه وأساتذة في بابه ، فعلم حالهم مقصور على الله وحده إذ لا يعلم حالهم غيره ولا يشاركه سبحانه في هذا العلم سواه وكأن المعنى لا يعلمهم إلا نحن إذ كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ومما ذكره عبد القاهر وبين أنه يفيد التقوية لا القصر قول الشاعر :

هُمُ يفرشُون اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّة ... وأجردَ سَبَّاحٍ يَبُذُّ المُغالِبَا

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٨٥ طبعة المنار

واللبد : الصوف أو الشعر وقد جرت عادتهم بوضع قطعة منه تحت السرج اللينة على ظهر الفرس ، والطمرة : أنثى الطمر وهو الفرس الجواد أو المجتمع المتداخل كأنه متهيئ للوثبان دائمًا ، والأجرد : الفرس القصير الشعر ، والسباح : الذي يشبه عدوه السباحة ، ويبذ : يغلب .

لم يرد أن يدعى لهم هذه الصنعة دعوى من يفردهم بها ، ويخصهم بها حتى كأنه يعرض بآخرين ، وإنما يقتعدون الجياد منها وأن ذلك دأبهم من غير أن يعرض لنفيه ممن غيرهم إلا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ، ويعلم بَدِيًّا قصده إليهم بما في نفسه من الصفة ليمنعه بذلك من الشك ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هي لهم ، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط إليهم وعلى ذلك قول الآخر :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه ... على وجهه من الدماء سبائب

فالكبش : رئيس الجيش يتركونه قتيلا . والسبائب : طرائق الدم فهو لم يرد أن يدعى لهم الانفراد ويجعل هذا الضرب مقصورًا عليهم لا يكون إلا منهم ، ولا يتجاوزهم إلى غيرهم ، ولكن أراد تنبيه السامع بأنهم المقصودون بالحديث ومثله قول الشاعر :

هما يلبسان المجد أحسن لِبْسَةٍ ... شحيحانِ ما استطاعا عليه كلاهما

لم يرد أن يقصر هذه الصفة عليهما ، ولكن نبه لهما قبل الحديث عنهما فالمقصود من التقديم تحقق الحكم ، وتمكنه في ذهن السامع ، ودفع الشك عنه وعلى هذا النحو نجد قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (النحل:٢٠) فتقديم المسند إليه لم يقصد به قصر وإنما قصد به تأكيد ثبوت الفعل للفاعل [1]

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص٨٩ ، طبعة المنار .

فالمسند إليه إذا قدم ولم يقع بعد أداة نفي بأن لم يكن في الكلام نفي أصلاً مثل أنا سعيت في حاجتك ، أو تأخر النفي عن المسند إليه كقولك : محمد ما سعى في حاجتك ، جاز حينئذ أن يراد من التقديم التخصيص أو التّقوّي على حسب ما يتطلّبه المقام ، فقد يحتم التخصيص وقد يوجب التقوية والمعوّل عليه هو مقام الخطاب ، وسياق الحديث فإذا وجد من ينازع في الحكم فيه كان الكلام مفيدًا للتخصيص فأنت ترد على من زعم انفراد غيرك بالفعل أو على من زعم مشاركة الغير لك فيه ، فتقول : أنا كتبت في مَعْنىً فلان وأنا سعيت في حاجته ، ويكون الكلام مفيدًا لتخصيص المسند إليه بالمسند ، ولذا إذا أردت التأكيد قلت لمن زعم انفراد غيرك بالفعل : أنا كتبت في مَعْنيً فلان وأنا سعيت في حاجته لا غيري إذ إن ذلك هو الدال صراحة على أن الفعل قد صار منك لا من غيرك فيكون قصر قلب .

كما تؤكد لمن زعم مشاركة الغير لك فتقول : «أنا كتبت في معنى فلان وأنا سعيت في حاجته وحدي» فذلك هو الدال صراحة على نفي أن يكون أحد قد شاركك في الفعْل فيكون قصر إفراد .

هذا إذا كنت ترد على مخالف أو على من يدعي المشاركة من الغير لك ، أما إذا أردت بقولك السابق مجرد إثبات الحكم للمسند إليه ، ولم تقصد الرد على معارض كان الكلام مفيدًا لتقوّي الحكم وتقريره في ذهن السامع إذ إنك لم تقصد من قولك : أنا سعيت في حاجتك نفي السعي عن الغير وإنما أردت أن تحقق للمخاطب في صورة قوية حصول السعي منك دون النظر إلى حصوله من غيرك أو عدم حصوله .

ولذا كان قولك : أنا سعيت في حاجتك أقوى من قولك : سعيت في حاجتك وكان قولك : محمد يعطي الجزيل أكد وأوثق من قولك : يعطي محمد الجزيل ، وقولك : أنت لا تكذب أقوى في نفي الكذب من قولك : لا تكذب أنت وكان قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٩) أقوى

في نفي الشرك مما لو قلنا : (والذين لا يشركون بربهم) أو قولنا : (والذين بربهم لا يشركون) أما السر في إفادة هذا التركيب التقوية والتأكيد لسببين .

الأول : تهيئة ذهن السامع لما يلقى بشأن المسند إليه الذي ذكر قبل المسند ، فيتشوف له للحكم المتعلق به ، فإذا جاء المسند تلقاه بالقبول ، واستقر في نفسه وتمكن منها .

بيان ذلك أن الاسم لا يؤتى به مُعَرًّى عن العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده لديه ، فإذا قلت : «عبد الله» فقد أشعرت قلب السامع أنك أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت : عبد الله قام دخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيئ له ، المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق ، لأن الإعلام بالشيء بعد التنبيه عليه ليس مثل الإعلام به بغتة ومن هنا قالوا : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر بدون إضمار ولذا كان قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (الحج:٤٦) أفخم وأشرف مما لو قيل : «إن الأبصار لا تعمى» وكان قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٧) أفخم من نحو قولنا : «إن الكافرين لا يفلحون»[1].

الثاني : تكرر الإسناد فكأنه حصل مرتين مرة بتقديم المسند إليه على المسند ، ومرة بإسناده إلى ضميره فلو قلت : عبد الله قام فهي بمثابة قام عبد الله ، فالقيام في قولك : عبد الله قام قد أسند إلى عبد الله مرتين إحداهما إلى الضمير المستتر في قام ، والثانية إسناد جملة «قام» إلى عبد الله لأنها خبر عنه[2].

---

(١) دلائل الإعجاز ص٨٨ .

(٢) انظر المطول ص ١٨٢ .

هذا وينبغي أن يعلم أن كل تركيب يفيد التخصيص يفيد التقوى والتأكيد وليس العكس ، لأن التركيب الذي يفيد التخصص لابد أن يكون المسند إليه مقدمًا ، وأن يكون مسبوقًا بنفي ، وأن يكون خبره فعليًا على نحو ما عرفت .

هذا ويستشهد عبد القاهر على أن نحو قولك : محمد يعطي الجزيل يفيد التقوى ؛ لأنه يستخدم عند البلغاء في المواطن التي تحتاج إلى توكيد ، وقد ذكر الشيخ سبعة مواضع يحتاج الأمر فيها إلى التأكيد :

الموضع الأول : أن يسبق إنكار من المخاطب كأن يقول لك : «أنا لا أعلم شيئًا عن هذا الذي تقول» فتقول له : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول ، فقد أتيت بالمسند إليه «أنت» وجعلت المسند فعلا لتؤكد له ما أراد إنكاره فهو أقوى وآكد من قولك : بل تعلم أن الأمر على ما أقول ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن الآية جاءت في معرض الرد عليهم فيما ادعوه ، إذ كانوا ينكرون الكذب ، وينكرون علمهم بأنهم يكذبون ، والإنكار داع قوي لتأكيد الحكم وتوثيق الكلام ؛ لذا جاء التقديم على هذا النحو مفيدًا للتقوية التي يتطلبها الإنكار ومثل ذلك في إفادة التقوى المطلوب للرد على الزعم والإنكار ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٨) اليهود بهذا الكلام المحرف الذين يلوونه بألسنتهم ويغيرون فيه ويبدلونه ثم يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، فجملة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أفادت التقوية إذ جاءت ردًا على إنكارهم بأنهم لا يعلمون .

الموضع الثاني : مجيئه فيما اعترض فيه شك ، كأن يقول لك قائل : «كأنك لا تعلم ماذا حدث أمس» فتقول له دافعًا هذا الشك عنده ومزيلا له : «أنا أعلم ولكني لم أشأ أن أعلمك» .

الموضع الثالث : أن يجيء في تكذيب مدع ومنه ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ (المائدة:٦١) فالمسند إليه في قوله (وهم) قد قدم في القول الكريم ليدمغَهم بالكذب في قولهم (آمنا) وليؤكد هذا الكذب منهم في ادعائهم الإيمان وبأن الحقيقة التي هم عليها على خلاف ما يدعون ، ويزعمون .

الموضع الرابع : يأتي هذا الأسلوب فيما القياس في مثله ألا يكون وفيما يحكم العقل ببطلانه كقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الفرقان:٣) وفي قوله أيضًا في النحل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ (النحل:٢٠،٢١) لأن عبادتهم لها تقتضي أن تكون غير مخلوقة ولذا جاء بالمسند إليه وهو ضميرهم مقدمًا تقوية للحكم .

الموضع الخامس : كل أمر يستغرب وفي كل شيء يكون خبرًا على خلاف العادة كقولك : البقرة تكلمت ، وكقولك : ألا تعجب من فلان يدعي العظيم وهو يعيا باليسير ، فإن الحكم عليه بالعجز على الهين مع ادعائه الأمر العظيم من شأنه أن يتردد المخاطب في قبوله فيخاطب خطاب المتردد ، ويؤكد له الأمر على هذا النحو .

الموضع السادس : في الوعد والضمان ، كقولك للرجل : أنا أكفيك أنا أقوم بهذا الأمر وإنما أكد مثل هذا ، لأن من تعده من شأنه أن يعترض الشك طريقه في إنجاز العهد والوفاء بالضمان ؛ لذا يساق له الكلام مؤكدًا كما يساق إلى الشاك الظان .

الموضع السابع : مواطن المديح ومواقف الفخر ، لأن من شأن المادح أن يمحو من أذهان السامعين ما يمكن أن يتردد فيها من شك فيما مدح به ، ويباعد بينهم وبين الشبهة فيما يقول إذ إن المديح والفخر يقتضيان نوعًا من المبالغة ، والإفراط في الأوصاف مما يقتضي نوعًا من التقوية لكلامه ، كقولك :

أنت تعطي الجزيل ، أنت تفري في المحل ، أنت تجود حين لا يجود أحد ، وكما قال الشاعر :

ولأنتَ تَفْرِي ما خلقْتَ وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يَفْرِي

ويفري الشيء يفريه قطّعه ، وفرى المزارة صنعها ، والخلق : التقدير .

والخالق : هو الذي يهيئ الأديم وقدره للقطع ويحرزه ثم يفريه كما قدره وهذا مثل ضربه لحزمه ، فهو يقول له : إنك إذا تهيأت لأمر وصلت له وأنفذته ولم يعجزك ، وبعض القوم إذا تهيأ لأمر قد قدره لا يمضيه ولا يقدم عليه عجزا وضعف همة .

وكقول لبيد :

نحن في المَشْتاة ندعو الجفَلى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرُ

المشتاة : مكان الشتاء وزمانه ، والجفلى : الدعوة العامة إلى الطعام وذلك أن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ويباعدهم من الشبه[1].

هذا الذي أفضنا في الحديث عنه مِنْ أن التقديم تارة يكون للتخصيص وأخرى للتقوى خاص بما إذا كان المقدم على خبره الفعلى معرفًا ولم يكن مسبوقًا بحرف النفي ، فإذا الكلام المقدم نكرة فإنه يكون للتخصيص ، إلا أنه مرة يكون لتخصيص الجنس ومرة يكون لتخصيص ، الوحدة والفصل بين المقامين إنما هو لحال المخاطب فإن كان النزاع في الجنس فالتخصيص له ، وإن كان في العدد فالقصر له ، فتقول لمن عرف أن قد أتاك آت ، ولم يدر أرجل هو أو امرأة أو اعتقد أنه امرأة ، رجل جاءني أي لا مرأة ، فيفيد قصر المجيء على جنس الرجل ، ويكون قصر تعيين أو قصر قلب على حسب حال

(١) انظر دلائل الإعجاز ص٨٣-٩٠ .

المخاطب ، وتقول لمن عرف أن قد أتاك من هو من جنس الرجال ، ولم يدر أرجل هو أو رجلان ، أو اعتقد أنه رجلان رجل جاءني ، أي لا رجلان فيفيد قصر المجيء على العدد المذكور وهو الواحد من جنس الرجال [1] .

* * *

(١) انظر في هذا : بغية الإيضاح ١/١٢٨ ، ١٢٩ .

رأي السكاكي في تقديم المسند إليه

لا ينظر السكاكي إلى تقديم النفي على المسند إليه وإنما يقيم المسألة كلها على أساس التنكير والتعريف ، فإن كان المسند إليه نكرة فإنه يفيد التخصيص ما لم يمنع من التخصيص مانع ، وهذا المانع أن لا يكون المعنى على تخصيص الجنس ، ولا على تخصيص العدد كما في المثل العربي « شر أهر ذا ناب» أي شر جعل الكلب يهر وينبح ؛ إذ لا يصح هنا تخصيص الجنس فيكون المراد أن الذي أهر ذا ناب شر لا خير ، لأن المهر لا يكون إلا شرًا فظهور الخير للكلب لا يُهِرُّه ولا يفزعه ، كما لا يصح هنا تخصيص العدد لكونه ثانيًا عن مكان استعماله ، لأنه لا يراد منه شر لا شران ، ففي نحو قولك : رجل جاءني ، وما رجل جاءني ، ورجل ما جاءني كلها للتخصيص .

أما إن كان المسند إليه معرفة ضميرًا غير اسم ظاهر ، فإنه يحتمل التوكيد أو الاختصاص ، مثل : ما أنا كتبت هذا أنا ما كتبت هذا وإفادة هذا الأسلوب للاختصاص عنده ليس مطلقًا وإنما مشروط بشرطين :

أحدهما : أن يجوز تقدير كونه في الأصل مؤخرًا على أن يكون فاعلا في المعنى ، ومعنى أنه فاعل في المعنى أن يكون توكيدًا للفاعل أو بدلا منه .

ثانيهما : أن يقدر كونه في الأصل كان مؤخرًا ، وهو حين قدم إنما قدم من تأخير .

ففي قولك : أنا قمت ، فإنه يجوز أن تقدر أن أصله : قمت أنا فيكون « أنا » فاعلا في المعنى وإن كان في الأصل تأكيدًا لتاء الفاعل في « قمت» وعلى هذا فالمسند إليه إذا كان اسمًا ظاهرًا فإنه لا يفيد إلا التقوى ، نحو : محمد ذاكر ، محمد ما ذاكر ، ما محمد ذاكر ، وإن انتفى الشرط الثاني بأن قدر الكلام في

مثل أنا قمت مبنيًا من الأصل على المبتدأ والخبر ولم يكن قائمًا على أساس أنه مقدم من تأخير فإنه كذلك لا يفيد إلا التقوى[1].

والذي تستريح إليه النفس أن اشتراط السكاكي هنا تكلف وتعسف إذ الكلام إنما يلقى لمخاطب يتلقى الخطاب ، وليس من منطق الأشياء أن تكلف المتلقي بأن يفتش عما في صدر المنشئ ، وأن يبحث عما في أعماقه ، وأن يتسرب إلى دواخله ، ليعرف قصده ، وليهتدي إلى نيته ، وليصل إلى ما استقر في أطواء نفسه هل قدَّر أم لم يقدر ؟

هل قدر فيكون الكلام مبنيًا على القصر ، أم لم ينو فيكون قائمًا على التوكيد والتوثيق والتقوية ؟

وعلى هذا فالنكرة عند السكاكي تفيد التخصيص ما لم يمنع مانع ، وأن الاسم الظاهر لا يفيد إلا التقوي ، وإن الاسم المضمر إنما يفيد التخصيص بشرطه وعلى هذا نستطيع أن نقول إن مثل : «ما أنا قلت» .

متعين للتخصيص عند عبد القاهر محتمل له عند السكاكي أن مثل : «ما محمد فعل هذا» .

متعين للتخصيص عند عبد القاهر مفيد للتقوي عند السكاكي .

أن مثل : «ما رجل قال هذا» «رجل ما قال هذا» «رجل قال هذا» متعين للتخصيص عند عبد القاهر وعند السكاكي .

أن مثل «أنا فعلت هذا» و«أنا ما فعلت هذا» .

محتمل للتخصيص وللتقوي وإن اختلف الاشتراط .

أن مثل : «زيد فعل هذا» و«زيد ما فعل هذا» [2].

---

(١) المطول ص١١٥ ، ١١٦ ، بغية الإيضا ١/١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) بغية الإيضاح ١/١٣١ ، ١٣٢ .

محتمل للتخصيص وللتقوي عند عبد القاهر متعين للتقوي عند السكاكي .

هذا ولم نعرف ما اشترطه السكاكي في النكرة اهتمامًا حتى تفيد التخصيص ، وهو عدم المانع لأنا مثّلنا لها بما لا خلاف حوله .

ماذا لو أن الخبر كان وصفًا مشتقًّا ولم يكن فعلاً ؟

عرفنا أن المسند إليه إذا تقدم وسبق بنفي وليه خبر فعلى فإنه يفيد عند عبد القاهر القصر قطعًا ، لكن ما الذي يمكن أن يكون إذا لم يكن الخبر فعليًّا وإنما كان وصفًا مشتقًّا مثل قوله تعالى في سورة هود حكاية عن قوم شعيب : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ زيد عارف؟ الحق أن النقاش في هذه المسألة بين علماء البلاغة قد أخذ حجمًا هائلاً ، فمنهم من أعطى الخبر المشتق حكم الخبر الفعلي تمامًا بتمام ، ومنهم من ذهب إلى غير ذلك .

فالسكاكي يرى أن مثل : زيد عارف يقرب في اعتبار تقوي الحكم من قوله هو عرف ، وبين أن مما يفيد التخصيص ما يحكيه الله ـ علت كلمتُه ـ عن قوم شعيب عليه السلام[1].

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت لكونهم من أهل ديننا ، فيكون الكلام هنا مفيدًا للتخصيص ، وكل تخصيص يفيد تقوّي الحكم ولذا قال عليه السلام في جوابهم ﴿ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ولو كان معناه معنى ما عززت علينا لم يكن مطابقًا .

لكن الخطيب لم يسلم للسكاكي بهذا وناقشه وبين أن قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ من باب أنا عارف مما يكون الخبر فيه وصفًا مشتقًّا ، وليس من باب أنا عرفت مما يكون خبره فعليًّا فلا يفيد الحصر . ثم يبين أن التمسك بالجواب ليس بشيء لجواز أن يكون عليه السلام فهم كون رهطه أعز عليكم من قولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ .

---

(١) سورة هود ، الآيات ٩١ ، ٩٢ .

ورأى الزمخشري أن قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ من باب التخصيص إذ إن ضمير شعيب عليه السلام قد ولي حرف النفي فدل ذلك على أن الكلام في الفاعل لا في الفعل ، كأنه قيل : «وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا» ولذلك قال في جوابهم : ﴿ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب ولم يسلم لصاحب الكشاف بهذا على أساس أن المسند إليه إذا ولي النفي إنما يفيد الحصْر إذا كان المسند خبرًا فعليًا .

وهكذا يشتد الجدل ، وتحتدم الخصومة مع أن القضاء في هذا يجب أن يترك لسياق الكلام ، وقد قال صاحب الكشاف بالتخصيص هنا في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ وقضى في موطن آخر بأنه يفيد التقوي حينما قال في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) «هم بمنزلته في قوله هم يفرشون اللبد كل طمرة في دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص[1].

* * *

(١) الكشاف ١/١٠٦ .

تقديم مثل وغير على الخبر الفعلي

مما اطرد فيه تقديم المسند إليه إذا كان كلمة «مثل» أو كلمة «غير» وتقديمهما كاللازم إذا استعملا كناية من غير تعريض بإنسان خاص تريده بلفظ مثل أو غير .

ذلك أن المعنى الظاهر الذي وضعت له كل كلمة من الكلمتين أن كلمة «مثل» إنما تشير إلى المماثل والنظير ، وكلمة «غير» أي غير المتكلم وسواه فإذا قال امرؤ القيس :

فمثلكِ حُبْلى قد طرقْتُ ومرضعٍ فألهيْتُها عن ذي تمائم مُحْوِلِ

فإن المعنى الظاهر لكلمة «مثل» أنها امرأة أخرى مماثلة لتلك التي يخاطبها الشاعر فليست هي ، وإنما هي امرأة سواها ، مماثلة لها وإذا قال ابن شرف القيرواني :

غيري جَنَى وأنا المعاقَبُ فيكُمُ فكأنني سبَّابَةُ المتندِّمِ

فمعنى هذا أنه لم يرتكب جناية ، وأن شخصًا آخر غيره هو الذي ارتكبها وأخذ هو بجناية غيره ، هذا هو الأصل في مثل وغير ، لكن العرب قد خرجوا عن هذا المعنى الظاهر وقصدوا بلفظ مثل ما أضيفت إليه ، فإذا قلت لإنسان : مثلك لا يكذب ، فليس المراد نفي الكذب عن المماثل له وإنما المراد نفي الكذب عنه ، أى أنت لا تكذب ، ولو قلت له : غيرك يخون فليس معنى هذا إلا أنك تنفي عنه الخيانة من غير أن تقصد إثباتها لغيره .

انظر إلى قول المتنبي في تعزيته لعضد الدولة في أمه

مِثلُكَ يُثْني الحزنَ عن صَوْبِه ويستردُّ الدمعَ عن غَرْبِهِ

وقول القبعثري للحجاج وقد قال له : « لأحملنك على الأدهم ـ أي القيد ـ مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب وأراد بالأدهم الفرس بقرينة الأشهب ، فلم يرد المتنبي الحكم على شخص آخر يماثل الممدوح وإنما عناه هو ، ولم يرد القبعثري شخصًا آخر خلاف الحجاج وإنما أراده هو بطريق الكناية فلم يقصد غير ما أضيفت إليه مثل : قال الشاعر :

ولم أقلْ مثلُكَ أعني به ... سِواك يا فردًا بلا مُشْبِهِ

ومثل « مثل» « غير» انظر إلى قول المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدِعُ ... إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدّثوا شَجُعوا

فهو ألمعى حصيف لا تنطلي عليه الحيل ، ولا ينخدع بالأباطيل ، فالمتنبي لم يرد أن يعرض بآخر قد انخدع ، وغرر به ، وإنما هو يتحدث عن نفسه فيبين أنه يقظ واع لا ينخدع .

فـ « مثل وغير » هنا إنما أريد بهما ما أضيفتا إليه لغرض إثبات الحكم للمسند إليه عن طريق الكناية ، والأسلوب الكنائي على هذا النحو أبلغ من الأسلوب المباشر الصريح كأن يقول : أنت تثني الحزن عن صوبه ـ الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ـ أنا لا أنخدع ، لأن الأسلوب الكنائي أشبه ما يكون بالدعوى التي معها دليلها ، وفرق كبير بين أن تقدم دعواك وبين يديها حجتها ، ودليلها أو أن تسوقها من غير حجة ، ولا برهان وتتركها تتأرجح بين الرفض والقبول .

بيان الكناية في هذا الأسلوب أنك إذا أثبت أن من كان مثل المخاطب وعلى أخص أوصافه يثني الحزن ويسترد الدمع ، فإنه يلزم من هذا أن الممدوح يثني الحزن ويسترد الدمع ، لأن ما يثبت لأحد المثلين أو ينفي عنه يثبت للآخر أو ينفي عنه ، فكأن الشاعر يقول للممدوح : أنت تثني الحزن وتسترد الدمع لأن مثلك يفعل ذلك .

وفي قول المتنبي : غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ترى الشاعر قد أثبت صفة الانخداع لكل من عداه والانخداع صفة لابد لها من محل تقوم به ، فإذا أثبتها الشاعر لغيره فقد نفاها عن نفسه إذ محل هذه الصفة محصور في الشاعر ، وفي غيره ، فإذا أثبتها لغيره فقد باعد بينها وبين نفسه .

هذا ولما كان الغرض من التعبير الكنائي في «مثل وغير» إثبات الصفة من طريق أبلغ كان لهما الصدارة وتقديمهما في الكلام يفيد التقوية والتوكيد «واستعمال مثل وغير» على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع وهو جار في عادة كل قوم ، فأنت إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدمان أبدًا على الفعل إذا نحى بهما هذا النحو الذي ذكرت لك ، أي إذا قصدا بهما ما أضيفتا إليه كما ترى في نحو قولك : مثلك لا يبخل ـ غيرك يبخل فمعناها أنت لا تبخل ـ وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدما ، أفلا ترى أنك لو قلت : (يثني الحزم على صوبك مثلك ، ويرعى الحق والحرمة مثلك ، ويحمل على غيري المعروف سحتًا) رأيت كلامًا مقلوبًا عن جهته ومغيرًا عن صورته ، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه ، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه»[1].

فعبد القاهر يرى أن مرجع الاستعمال في (مثل وغير) إذا لم يرد بهما إلا ما أضيفتا إليه هو الطبع والعرف ، فهما يقدمان على الفعل فيفيدان التقوية والتأكيد ، وهذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدما والكلام يكون مقلوبًا عن جهته ومغيرًا عن صورته ، ويأباه الطبع ولا يرضاه لو قلت : يثني الحزن عن صوبه مثلك ... إلخ لكن لزوم تقديمهما لم يجئ من ناحية القياس الذي لا يمنع تأخيرهما .

لأن المراد بهما إثبات الحكم عن طريق الأبلغية ، وهذا متحقق بالكناية مع التأخير لكن هذا اللزوم في التقديم إنما جاء من ناحية الاستعمال العربي من

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٢ المنار .

حيث إن التقديم يفيد التقوية ، فيكون عونًا على تحقيق الغرض أي على إثبات الحكم من طريق أبلغ فأشبهتا ما اقتضت القواعد تقديمه .

ومن ثَمَّ فلو استعملتا غير متقدمتين لجاء الكلام مقلوبًا عن جهته واللفظ نابيًا عن معناه على حد ما يقول الإمام ، ومن ثَمَّ فتقديمهما لازم بلاغة وكاللازم صناعة ؛ لأن القواعد النحوية لا تقتضي وجوب تقديمهما لكنهما لما لم يستعملا في كلام البلغاء إلا مقدمتين أشبهتا اللازم الذي تقتضي القواعد تقديمه كأسماء الاستفهام [1] .

لكن إذا لم تستعمل مثل وغير على سبيل الكناية بأن لا يراد بهما ما أضيفتا إليه ، وإنما أريد بهما التعريض بغير المخاطب جاز فيهما حينئذ التقديم والتأخير ؛ لأن التقديم إنما كان شبيهًا باللازم لأنه يعين على إثبات الحكم بالطريق الأبلغ من حيث إفادته التقوية ، وإذا أريد التعريض بإنسان آخر غير المخاطب لم ترد الكناية ومن ثَمَّ لا أبلغية ولا حاجة إلى التقديم .

* * *

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم ص ٢٨١ عبد الهادي العدل .

تقديم المسند إليه
لإفادة عموم السلب وسلب العموم

من أغراض تقديم المسند إليه إفادة العموم :

وللعموم ألفاظه التي تعبر عنه وتحتويه ككل وجميع حين تستعملان مع النفي أو ما أشبهه كالنهي ، واستعمالهما على هذا النحو إما أن يكون لعموم السلب ، أو لسلب العموم فما عموم السلب ؟ وما سلب العموم ؟

فعموم السلب الذي يقدم المسند إليه من أجل تحقيقه هو : ما تحقق معه النفي المستقصي الشامل لجميع أفراد المسند إليه فردًا فردًا من غير أن يستثنى أحدًا ، وإنما يتحقق إذا كان المسند إليه من ألفاظ العموم كألفاظ كل وجميع وعامة وأن تتقدم أدوات العموم على أدوات السلب والنفي لفظًا ورتبة ، مثال قول أبي النجم :

قد أصبحتْ أُمُّ الخيار تَدَّعي عليَّ ذنبًا كُلُّه لم أصنعِ

أدر نظرك في بيت أبي النجم ، وتوقف أمام أداة العموم فيه تجدها « كل » بالرفع ، وهي مبتدأ وخبره الجملة المنفية التي أتت من بعده « لم أصنع » « وكل » في المثال المذكور سبقت النفي ولم تقع في حيزه ، ولا في مجاله ولأنها مبتدأ فرتبتها التقديم ، ولأن النفي جاء من بعدها ، فقد تحقق لها السبق له في اللفظ وفي الرتبة ، ومن ثَمَّ تحقق في التركيب ما طلبه عبد القاهر لتحقيق عموم السلب فأفاده وحققه ، فالمرأة قد ادعت على أبي النجم دعوى ليس فيها شيء من الحق واتهمته بذنب هو منه برىء فهو لم يصنع أبدًا شيئًا مما تدعيه لا قليلا ولا كثيرًا ، وهكذا أفاد التعبير على هذا النحو الذي جاء عليه النفي الشامل الذي يعم جميع أفراد المسند إليه .

ويوثق هذا ويزكيه قول الحبيب ﷺ جوابا عن سؤال ذي اليدين العرباض أو الحزياق بن عمرو وكان طويل اليدين :

« أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله » فأجابه « كل ذلك لم يكن » تأمل الإجابة النبوية ترى أنها واضحة الدلالة في النفي الشامل المستقصي للأمرين معًا القصر والنسيان ، فلا هذا ولا ذاك ومما يزيد من وثاقه هذا الفهم أن ذا اليدين حينما راجع إجابة النبي ﷺ قال له : « بل بعض ذلك قد كان » وذلك الرد قاطع في علم ذا اليدين أن النبي الكريم يقصد إلى نفي الأمرين معًا بعبارته التي تقدم فيها المسند إليه وهو من ألفاظ العموم التي لم تقع في حيز النفي ، فلو لم يرد الرسول ﷺ النفي الشامل للنسيان والقصر لما صح قول ذا اليدين المذكور .

ومما يشهد لذلك من الشعر على حد تعبير الإمام عبد القاهر قول الشاعر :

فكيف وكلٌّ ليس يعدُو حمامَهُ ولا لامرئ عما قضى الله مَزْحل [1]

فالمعنى على نفي أن يعدو أحد من الناس حمامه بلا شبهه ، ولو عكست فأخرت أداة العموم « كل » فقلت : « وليس يعدو كل حمامه » لأفسدت المعنى وصرت كأنك تقول : إن من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خالدًا لا يموت ومثل هذا قول دعبل :

فوالله ما أدري بأي سهامها رَمَتْني وكلٌّ عندنا ليس بالمكْدِي

أبالجيد ؟ أم مجرى الوِشاح؟وإنني لأُتهِمُ عينيها من الفاحِمِ الجعْد

فالمراد بالمكدي من السهام الذي يخطئ المرمى ، والوشاح نوع من الثياب التي تستخدم للزينة يجمع كشحي المرأة مع عاتقها ، وأتهم الرجل إتهامًا كأكرم إكرامًا أتى بما يتهم عليه .

---

(١) الدلائل ص ١٨٦ طبعة المنار .

والمعنى على نفي أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه ومثل النفي في هذا النهي ، فقول القائد لجنده : كل الأسرى لا يقتلون . نهي عن قتل كل فرد فيهم .

وجه الاستشهاد على عموم السلب بحديث ذي اليدين وبيت أبي النجم تعرض الخطيب لذلك ، فبين أن الاحتجاج بحديث ذي اليدين من وجهين :

١- أن السؤال بالهمزة يحتمل أن يكون للتصور ، وأن يكون للتصديق والهمزة هنا تفيد التصور بدليل ذكر المعادل «أقصرت الصلاة أم نسيت» والجواب بتعيين واحد من الأمرين :

«القصر أو النسيان» أو نفيهما جميعًا ، ولا يصلح أن يكون الجواب بنفي أحدهما لا على التعيين ، لأن ذلك معتقد السائل ، وجاء الجواب «كل ذلك لم يكن» بتقديم كل على أداة السلب ؛ ليعم النفي القصر والنسيان جميعًا فعلم من هذا أن تقديم (كل) على النفي يفيد عموم السلب .

٢- ما روي من أنه لما قال رسول الله ﷺ «كل ذلك لم يكن» .

قال ذو اليدين : بل بعض ذلك ، قد كان ، والموجبة الجزئية في قول ذي اليدين نقيضها السالبة الكلية ، وهو قوله ﷺ .

ووجه الاستشهاد ببيت أبي النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبًا كله لم أصنع

أن الفصيح نصب كل «حتى لا يكون في الكلام قطع للفعل عن العمل بعد تهيئته له ومجيء «كل» في كلام الشاعر مرفوعة وهو عربي فصيح يدل على أن مجيء «كل» قبل النفي يفيد عموم السلب ، إذ إن سياق كلام الشاعر يفيد هنا ، ذلك أنه كما يقول عبد القاهر : أراد أنها تدعى عليه ذنبا لم يصنع منه شيئًا البتة لا قليلا ولا كثيرًا ، فلو كان النصب مفيدًا لذلك والرفع غير مفيد لم يعدل عن النصب إلى الرفع لأنه لا ضرورة لذلك ، لكنه رأى النصب يمنع من

هذا المعنى ، ولا يقتضي أن يكون قد أتى من هذا المعنى ، ولا يقتضي أن يكون قد أتى من الذنب الذي ادعته بعضه [1] .

هذا وإنما أفاد عموم السلب النفي لجميع أفراد المسند إليه فردًا فردًا من غير أن يترك أحدًا ، لأن أداة العموم حينما تتصدر الكلام ويبدأ بها وتأتي أداة السلب من ورائها يكون قد أقيم النفي عليها ، وبنى على وجودها ، وسلطت الكلية عليه وعملت فيه ، وذلك يقتضي انسحاب النفي على جميع أفراد المسند إليه وشموله لهم من غير أن يترك أحد .

هذا بالنسبة لعموم السلب أما سلب العموم ، وهو ما قدمت فيه أداة السلب على لفظ العموم الذي جاء من بعدها ، فإن النفي على حد ما يرى الإمام عبد القاهر لا يكون شاملا وعامًا ، وإنما الكلام على ثبوت الحكم لبعض الأفراد دون بعض سواء وقعت أداة العموم في حيز النفي لفظًا ورتبة كقول أبي الطيب :

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

فهو يوضح أن الإنسان لا يحقق كل ما يرجوه ، ويتمناه بل إنه يدرك بعضًا ويتأبى عليه البعض ، ومثل ذلك قول أبي العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد إذا بدا لك رأي مشكل فقف

فليس كل ذي رأي بمصيب ، بل إنه قد يصيب تارة ، وقد يخطئ أخرى فالنفي هنا لا يعم جميع الأفراد ، ولا ينسحب عليهم فردًا فردًا .

بل إن الكلام يفيد ثبوت الحكم للبعض ، وعدم ثبوته للبعض الآخر ، ولفظ العموم واقع هنا في حيز النفي لفظًا ورتبة .

أما وقوع أداة العموم في حيز النفي تقديرًا ، وذلك يتحقق حين تتقدم أداة العموم على الفعل المنفي الذي أعمل فيها ، لأن العامل رتبته التقدم على

---

(١) بغية الإيضاح ، ١/١٤٢ ، ١٤٣ .

المعمول ، كما تقول : كلَّ الدراهم لم آخذ ، بنصب كل ، وفي هذا وفي كل ما هو على شاكلته يتوجه النفي إلى البعض دون البعض يقول عبد القاهر :

« واعلم أنك إذا أدخلت (كلاً) في حيز النفي ، وذلك بأن تقدم النفي عليه لفظًا وتقديراً ، فالمعنى على نفي الشمول دون نفي الفعل والوصف نفسه ، وإذا أخرجت (كلاً) من حيز النفي ولم تدخله فيه لا لفظًا ولا تقديراً كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها واحدًا واحدًا .

والعلة في أن كان ذلك كذلك أنك إذا بدأت بكل كنت قد بنيت النفي عليه وسلطت الكلية على النفي وأعملتها فيه ، وإعمال معنى الكلية في النفي يقتضي أن لا يشذ شيء عن النفي »[1].

هل هذه القاعدة التي هدى إليها عبد القاهر لم يثر حولها كلام ؟

الواقع أنها لم تسلم من الوقوف أمامها وإثارة الحوار حول مدى صدقها .

فالخطيب لم يسلم بعموم هذه القضية على هذا النحو الذي بينه عبد القاهر وجعلها موضع اعتبار ونظر ، وإن لم يشرح ويفصل هو هذا النظر .

ووقف السعد في مطوله أمام بعض الشواهد القرآنية ، فوجد سلب العموم لا يتحقق معها مع أن القياس الذي وضعه عبد القاهر لسلب العموم ينسحب عليها وتندرج هي تحت مفهومه ، وترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة:٢٧٦) إذ ليس المراد أن الله لا يحب البعض ويحب البعض الآخر ، بل المراد ـ والله أعلم ـ أنه لا يحب أحدًا منهم ، وترى هذه في نحو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (الحج:٣٨) وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:١٨) ، وقوله : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (القلم:١٠) ، فهذه الشواهد القرآنية عند النظر الفاحص ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٨٨ المنار .

والتأمل الدقيق تخالف قاعدة عبد القاهر في سلب العموم إذا دخلت «كل» فيها في حيز العموم ، وهذا يقتضي عدم انسحاب الحكم على جميع الأفراد ، وإنما انسحابه على البعض دون البعض مما لا يصح اعتباره هنا في تلك الشواهد التي يعم فيها النفي ـ والله أعلم ـ جميع الأفراد ؛ ولذا قال السعد معترضًا على قول عبد القاهر :

«وقال الشيخ إذا تأملنا وجدنا إدخال كل في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضًا كان وبعضًا لم يكن ، وفيه نظر ؛ لأنَّا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ فالحق أن هذا الحكم أكثري لا كلي[1].

فصاحب المطول جعل القضية أغلبية ، أو أن القاعدة التي وضعها عبد القاهر جاءت على أصل الوضع ، وإفادة هذه الآيات لشمول النفي ليس من أصل الوضع وإنما بواسطة القرائن والأدلة الخارجية ـ للعلم قطعًا بعدم محبة الكافر والمختال ، والخلاف بحيث لو لم يلاحظ الدليل كان مفادها سلب العموم ، أو أن يكون المراد اعتبار دخول «كل» بعد النفي لا قبله ، فتكون الكلية قيدًا في النفي لا في المنفى فيكون من شمول النفي وعمومه ؛ لأن القيد إذا لوحظ بعد النفي كان قيدًا فيه لا في المنفى[2].

وهناك رأي ذكره شارح التلخيص في علوم البلاغة الشيخ عبد الرحمن البرقوقي إذ قال : إنه عرض هذه القضية على الإمام محمد عبده فأفتى فيها برأيه .

---

(١) المطول ص ١٢٥ .

(٢) المنهاج الواضح ص٥٩ ، ص٧٢ ـ حاشية الدسوقي ١/٤٤٢ .

« فأجاب حفظه الله بما يشرح الصدر ويملأ النفس ارتياحًا قال : قد يعدل عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد سلب العموم ، والسلب عام في الحقيقة ، للتعريض بالمخاطب والإيماء إلى أنه شر صنفه ، مثلا إذا قلت لسفيه نعرف بأنه شر السفهاء : أنا لا أحب كل سفيه ، فالمعنى أنه لو فرض أن محبتي تتعلق بسفيه لكنت غير موضع لها ، وكذلك الذي جاء في الآية الكريمة أريد به ـ والله أعلم ـ التعريض بمن نزلت فيهم من أعداء الله وأنهم شر أصنافهم فقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ معناه أن محبة الله لا تعم المختالين الفخورين حتى تشمل هؤلاء ، فكأنه سبحانه يقول : لو أن محبتنا تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأولئك ؛ لأن مختالهم وفخورهم شر مختال وفخور ، وهكذا يقال في سائر الآيات ، وما يكون ظاهره من سلب العموم وحقيقة أنه من عموم السلب» [1].

* * *

(١) التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح عبد الرحمن البرقوقي ص٨٨ ، دار الفكر العربي .